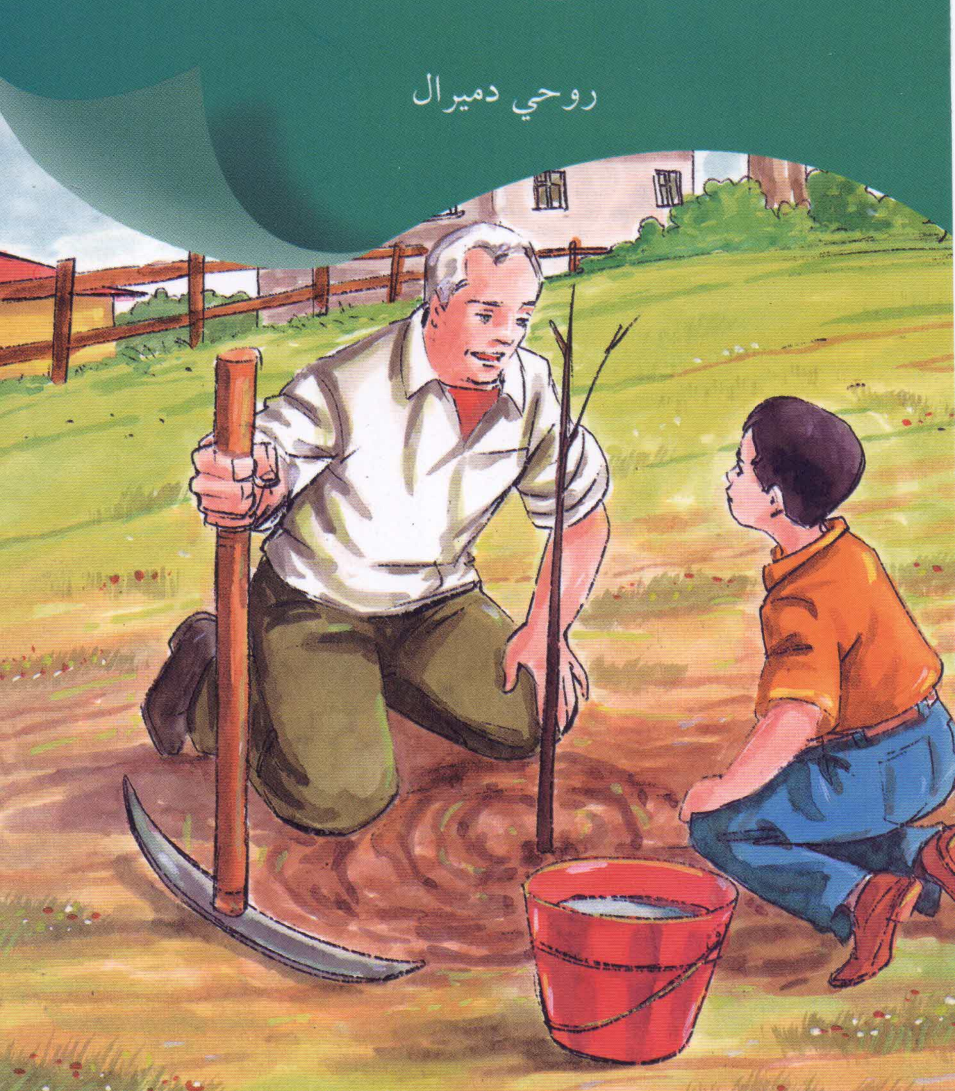
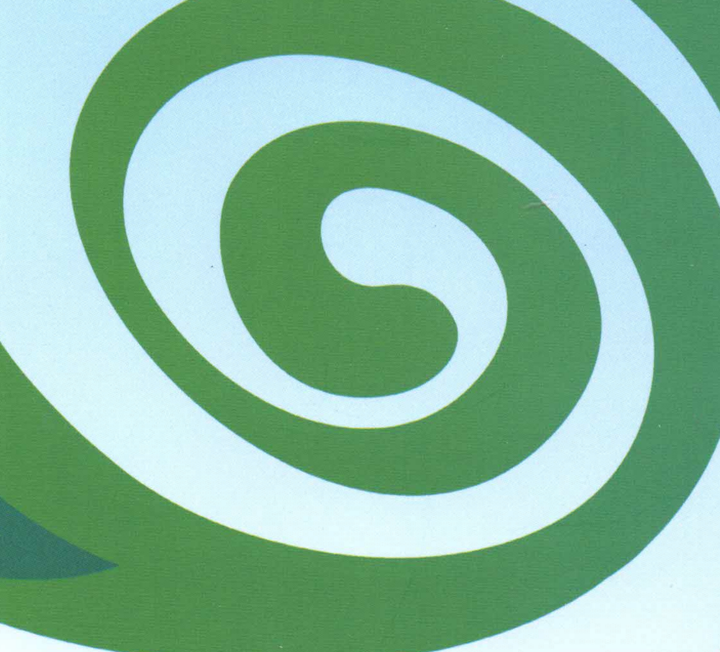
قصص مكارم الأخلاق

شجرة الحياة

روحي دميرال







شجرة الحياة

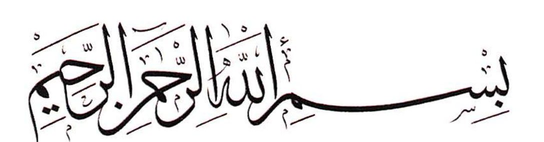
لقد غُرست هذه الشجرة يوم وُلدتُ، وهذه عادة لدينا، نغرس لكل مولود شجرة ويقال لها "شجرة الحياة" ينتفع الناس من فواكه هذه الشجرة وظلها وهوائها الطيِّب ما دامت خضراء ناضرة، يتخذ منها الطير والحشرات عُشًّا، ومن ثم يكون ذلك ثوابًا مستمرًّا، ويوهَب هذا الثواب لمن غرست الشجرة على اسمه.

ISBN: 978-975-315-636-3





شجرة الحياة



شجرة الحياة

تأليف

روحي دميرال

ترجمة

أسماء مكاوي

شجرة الحياة

قصص مكارم الأخلاق-٧

الطبعة الأولى: 1434 هـ - 2013 م

تحرير

يوكسل جلبنار

مراجعة

خالد جمال عبد الناصر

تصحيح

د.عبد الجواد محمد الحردان

المخرج الفني

أنكين جيفجي

غلاف وتصميم

ياووز يلماز

رقم الإيداع ISBN:978-975-315-636-3

رقم النشر

512

I IK YAYINLARI

Bulgurlu Mah. Ba cılar Cad. No:1

sküdar - stanbul / Türkiye 34696

Tel: +90 216 522 11 44 Faks: +90 216 650 94 44

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي

– خلف سيتي بنك- التجمع الخامس- القاهرة الجديدة – مصر

5-Tel & Fax: 002 02 26134402

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر Mobil

فهرس

الشقيقان المحسنان

كانت السماء ترسل مطرًا خفيفًا على أراضي أريحا المباركة في منتصف شهر نيسان/إبريل، وجبال النور التي تقع خلف البلدة مباشرة تمتد على طول البحر الأبيض المتوسط، حتى إن كل بقعة منها على مدِّ البصر خضراء ناضرة من القمم حتى الشواطىء.

خرج أهالي هذه البلدة الجملية من المسجد بعد أن أدوا صلاة العيد، ومن وسط الجموع الغفيرة دخل الشقيقان وعبرا الفناء مسرعين، ثم خرجا من المسجد، وأخذا يركضان كأنهما يتسابقان معًا، تقدم أكبرهما الذي يناهز الحادية عشرة من عمره، أما أخوه الأصغر بعامين فقد تخلف عنه لقِصر خطواته، لم يقطع مسافة ٣٠٠ متر بعدُ حتى أحس بالتعب، لم يقوَ على الاستمرار، فتوقف عن الجري، ونادى أخاه الأكبر من خلفه قائلًا:

- أخي بلال، لقد تعبتُ كثيرًا!

تمهّل بلال، ثم توقف وجلس على جدار الحديقة، فقال له أخوه وقد لحِق به عبوس الوجه:

- لماذا لم تنتظرني؟

فأجابه بلال ضاحكًا:

- تعلَّم الجريَ بدلًا من أن تعاتبني يا ثابت.



قفز ثابت وجلس بجانب أخيه الأكبر، خلع العقد الذي في عنقه وأخذ يقلِّبه بين راحتيه، كان قد صنعه هو وأخوه الأكبر من زهور البرتقال، وسيهدونه لوالدتهما في العيد؛ ضم ثابت العقد بين راحتيه الصغيرتين، ورفعه إلى أنفه، وأخذ يشمّه، ثم أغمض عينيه وقال:



- اللهم صل على سيدنا محمد.

شمّ عِقد الزهور مرة بعد أخرى، وفي كل مرة كان يصلي على الرسول ﷺ.

كان بلال طول هذا الوقت يراقب سلوك أخيه، فقال في هدوء وصمت:

- عزيزي، ما في يديك ليس وَردًا كلما شممته صليتَ على الرسول، فأبي إنما كان يصلي على الرسول حينما يشمّ الورود.

اعترض ثابت فورًا قائلًا:

- لا، إنّ أبي كان يصلي على الرسول كلما تذكره، وأنا أيضًا تذكرته عندما شممت هذا العِقد؛ فصليت عليه.

لم يُضف بلال شيئًا لأنه كان يعرف أخاه جيدًا، لا يتراجع عن قوله، وما قاله الآن كان قولاً صائبًا وليس بخطأ.

سأله بلال ليغير موضوع الحديث:

- ها، وماذا سنفعل الآن؟

هز ثابت كتفيه بالموافقة، فنزل بلال فورًا من فوق الجدار وقال:

- أولًا نقبل أيدي والدتنا، ثم نقلدها هذا العِقد، ثم انطلقا نحو إلى المنزل.

أخـذ ثابـت يتأمّـل المكان من حوله بينمـا كان يتْبَع أخاه، فعند حلول شهر نيسان/إبريل يتغير الجو في هذه الناحية، وفي أواسط هـذا الشـهر تخرج إلى النـور أجمل ثمار أشـجار البرتقال وتتفتح الزهور، وتفوح من زهور البرتقال رائحة غاية في الجمال حتى إنَّ الناس جميعًا لطالما كانوا يتأثرون بها، فقد كان أهالي هذه الناحية يستنشـقون هـذه الرائحـة الطيبـة أوقـات الغـروب فـي الطرقـات والشـرفات بل داخل منازلهم أيضًا، وبينما كان الشـقيقان يسـيران شاردين إذ ناداهما أحدهم قائلاً:

- أيها الطفلان، دقيقة من فضلكما.

التفـت كل مـن بـلال وثابت ناحيـة الصوت، فإذا بسـيارة ذات طـراز قديـم تقـف فـي الناحية المقابلـة للطريق، يجلـس في مقعد السـائق بداخلهـا شـاب ضخـم الجثة ذو شـارب كثيـف، فـإذا بـه يطلب المساعدة:

- تعطلت السيارة، هل بإمكانكما أن تدفعاها قليلًا؟

اتجـه الطفـلان مـن فورهمـا ناحية السـيارة، وهناك رأيا شـيخًا كبيرًا ذا لحية بيضاء يجلس على المقعد المجاور لمقعد السائق.

شـرعت السـماء تمطـر مطـرًا خفيفًـا، فتقلـد ثابت العقـد الذي فـي يـده، وأخـذ يدفـع السيارة بـكل ما أوتي مـن قـوة؛ أخذ بلال

أيضًا مكانه بجانب أخيه، وراح هو الآخر يدفع بكل قوته تلك السيارة القديمة، ولكن دون جدوى؛ لم تتزحزح السيارة عن مكانها، حاول الشقيقان مرة بعد أخرى، ولم يُفلِحَا، فقال بلال:

- اترك هذا يا ثابت، فقوتنا لا تكفي لدفعها.

غَضِب ثابت عندما انتبه لقول أخيه وصاح قائلاً:

- آه آه!

لقد عَلِقَ العقد المتدلي من عنقه بصندوق السيارة فانقطع، مال ثابت كي يلتقطه قبل أن يسقط على الأرض، فكان ما كان... وصُدمت رأسه بمِصَدّ السيارة.

ودوت صيحته وهو يصرخ قائلًا:

- آه ! رأسي...

وبينما كان ثابت يدلك رأسه، إذ به يرى العقد الذي سقط على الأرض، فنسي ألمه، ومال ليلتقط العقد من وسط الطين وحاول أن ينفض الطين عنه وينظفه.

أمسك بلال بذراع أخيه وسحبه وهو يقول:

- هلم بنا يا ثابت، لنذهب من هنا، أخرج الشاب الذي يجهل ما حدث رأسه من نافذة السيارة الأمامية وناداهما قائلًا:

- يا أطفال لقد نسيت أن أشد كابح اليد، هيا حاولا من جديد.



فأجابه ثابت الغضوب وقد بدا على وجهه الغضب:

- ليدفعها الجدّ الجالس بجانبك، فهو يجلس كالباشوات.

كان يقصد بكلمته تلك «افعلوا ما شئتم!»، لكنه لم يقل شيئًا، وكَسَا الغضب وجهه، وسبب استيائه هذا أن الرجل الكبير لم ينزل من السيارة ولم يقدم لهما المساعدة.

وأخذ يتمتم وهو يسير خلف أخيه الأكبر قائلًا:

- هو رجل مسنٌ؛ وأنا لم أناهز التاسعة من عمري بعد، فإذا كان هو لا يقوى على دفع السيارة، فهل أنا سأقدر؟ لم يكادا يمشيان خمس خطوات أو عشرًا حتى سمعا صوت باب السيارة يُفتح، كان الشاب قد خرج وشرع يناديهم من خلفهم ويقول:

- حسنًا يا أطفال، أبي سيدفع معكما أيضًا، لنحاول مرة أخرى! يجب أن ندرك المشفى.

ولما سمع بلال كلمة مشفى توقف فجأة، وعاد بسرعة وأخذ مكانه خلف السيارة، ثم جاء ثابت أيضًا بجانب أخيه الأكبر وقد عقد الجزء المقطوع من العقد الذي في يده، وفي تلك الأثناء فُتح باب السيارة الأيسر، وخرج الرجل المسن ذو اللحية البيضاء أيضًا ليساعد الأطفال، أسند الطفلان راحاتهم على السيارة ولم ينتظروه، سحبا أرجلهما قليلاً للخلف ومالا بجسديهما إلى الأمام مباشرة، فهما بحالهما هذه يشبهان القوس المشدود، وبينما كان

ثابت يدفع بكلِّ قواه لاحظ أن بلالًا يقف مستقيمًا بلا حركة.

اشتد غضبه، فصاح قائلًا:

- ما لك لا تدفع؟

لم يجبه بلال، وكان ينظر يمينه وهو متسمِّر في مكانه، اعتدل ثابت بفضول، وإذا به يرى الشيخ الكبير بجانب أخيه الأكبر وهو يحاول أن يدفع العربة، فارتجف لرؤيته، كانت قدم الشيخ اليمنى مقطوعة من الركبة، فأخذ مكانه خلف العربة مستندًا على عكازه، ثم أسند راحتيه على مِصَدّ العربة وحاول أن يدفعها، ولم يكن يلاحظ حتى الطفلين اللذين يتأملانه بأعين ملؤها الدهشة.

تخلص الطفلان من تأثير المشهد الذي رأياه، ثم أخذا يدفعان العربة من جديد، وهما لا يزالان يرقبان الشيخ، وأخيرًا بدأت العربة تتحرك؛ زاد الطفلان من سرعتهما، أما الشيخ فلم يتحرك من مكانه، وبعد قليل دارت السيارة، واتجه كل من بلال وثابت نحو الشيخ في خجل، هطلت الأمطار بغزارة، فمسح الشيخ قطرات المطر المتقاطرة من جبينه على عينيه براحة يده ثم نظر إلى الطفلين، وقال مبتسمًا متقطع الصوت في رقة وحنو:

- جزاكم الله خيرًا يا أبنائي.

وتقدم مباشرة نحو العربة التي كانت تنتظره، لم يتمالك ثابت نفسه، فركض خلفه وناداه قائلًا:

- لحظة واحدة يا جدي.

وقف الشيخ ونظر بحب إلى الطفل القادم نحوه، فقلده ثابت عقد الزهور، وقال بصوت باكٍ:

- عيد مبارك، ثم أسرع نحو أخيه الأكبر مباشرة، وامتزجت على خديه عبراته المتساقطة من عينيه مع قطرات المطر.

أخذ المسن يتأمل الطفلين اللذين يسيران تحت المطر، وأمسك العقد الذي في عنقه ثم قربه إلى أنفه وشمَّه بعمق، كانت رائحة زهور البرتقال المبللة بقطرات المطر رائحةً يألفها الرجل المسنّ، غير أنه ذلك اليوم أدرك لأول مرة أن رائحة هذه الزهور طيبة بهذا القدر، فرفع عينيه إلى السماء وأخذ يدعو من أعماق قلبه للطفلين.



الخط الرديء

أخـرج جمـال قلمه ودفتره من حقيبته ثم رفع رأسـه ونظر إلى السـبورة، فقـرأ الرباعيات الثـلاث التي كتبها معلمـه، كان زملاؤه قـد كتبـوا البيت الأول منذ وقت طويل، قرأ جمال الشـعر بتأنٍ ثم أغمـض عينيـه وأخـذ يـردّده عـن ظهـر قلـب، حفظ جمال الشـعر المكتوب على السبورة بعد أن قرأه مرتين فقط، نظر إلى أصدقائه خلسـة، كانوا جميعًا منشـغلين بالكتابة بهمة ونشاطٍ، فتمتم جمال مبتسمًا:

- الآن لحقت بكم.

كان التلاميـذ يضيعـون الوقـت بيـن النظر إلى السـبورة والنظر إلى الكراسات، أما جمال فكان يكتب دون أن يرفع رأسه، فأنهى كتابة الشعر في وقت قصير، وقال مسرورًا:

- لقد انتهيت يا أستاذي.

فقام السيد سليم من مقعده ثم تقدم ونظر إلى دفتر جمال، وسرعان ما توارت عن وجهه الابتسامة، وقال بصوت متهدِّج:

- أحسنت يا جمال! شِعْر جميل كهذا يكتَب بخط قبيح كهذا، هل تَعِي ما تفعل؟ إنك تستهين بالكتابة والورق وبالقلم والشعر، صحيح أنّ خط المبتدئ رديء إلا أنه مقارنة بخطك يُعد فنًّا رائعًا، أنت ستنهي الصف الخامس هذا العامّ، وأنا كدت أتوسل إليك منذ الصف الثاني من أجل هذا الأمر، اهتم بِخَطِّكَ يا جمال.

رفع تلاميذ الصف رؤوسهم ناظرين إلى جمال بصمت، عاد السيد سليم ثم جلس في مكانه ووضع يديه على المكتب ونظر إلى جمال نظرة منكسرة حزينة، ثم تابع حديثه وهو يمرر نظره في الفصل بأكمله ويقول:

- بدأت عصور التاريخ بالكتابة، فهي أهمُّ إبداع لدى البشر، أنتم أيضًا بشر، فلا بُدّ أن تهتموا بها أيضًا، إذ إن تلاميذ رائعين مثلكم لا بد أن يكون خطهم رائعًا أيضًا، كل سلوكياتكم حسنة، أنتم أيضًا رائعون، انظروا لهذا الشعر فهو يقصّ جمال الطبيعة، ولا تنسوا أن الله جميل يحب الجمال، فرجاءً أناشدكم الله أن يكون خطُّكم أيضًا جميلًا كباقي مهاراتكم.

صمت السيد سليم برهة، ثم طلب من جمال أن يأتي إلى جواره، كان الطلاب ينظرون بفضول، قام جمال من مقعده على مضض منه، تقدم نحو مكتب معلمه بخطوات ثقيلة، فالتفت السيد سليم إلى الطلاب وقال:

- أيها الأطفال استمروا أنتم في الكتابة، فمال بعض التلاميذ برؤوسهم وأخذوا يهتمون بعملهم.

كان جمال قد تلقى تنبيهات كثيرة في موضوع الكتابة، غير أنه لم يبالِ بأيٍّ منها، في أغلب الأحيان لم يكن ينقل المكتوب على السبورة إلى دفتره، وإن فعل ذلك لم يستطع هو أن يقرأ ما كتبه، فقد كان يؤدي واجباته بإهمال ولا يكترث بأن تكون الحروف مقروءة واضحة، وعندما يضيف عجلته إلى هذا الإهمال يصير خطه بعيدًا كل البعد عن الكتابة، فتغدو صفحات الدفتر الناصعة البياض عندما يملؤها كأن مكنسة عبرت من فوقها؛ وعندما يجتمع جمال بأصدقائه أحيانًا تكون حاله هذه هي موضوع الحديث، فيمط جمال شفتيه احتقارًا ويقول مدافعًا عن نفسه:

- الكتابة ليست إلا تضييعًا للوقت، كما أنكم تعلمون أني أذكى تلاميذ الفصل، وأعلى النقاط تكون من نصيبي، فهل تتخيلون أن أتفوق عليكم لو أن لجمال الكتابة كلّ هذه الأهميّة؟



فأنا أستمع إلى الدرس أثناء إلقائه، وأسجل ما يقوله معلمي في عقلي وليس في الكراس فلا أنساه ثانيةً، وعندما أذاكر في المنزل أستخدم ذاكرتي بدلاً من الكراس.

كان جمال دائمًا حتى ذلك اليوم يقول مثل هذه الكلمات، ومهما ذمّ أصدقاؤه خطّه لا يمكنهم أن يقولوا شيئًا عن تفوقه، تُرى كيف يتمكن المرء من أن يكون ناجحًا هكذا إذا كانت الكتابة لا تروقه، وخطه أقبح ما يكون.

وقف جمال بجانب أستاذه السيد سليم، فأشار إليه برأسه لكي يقترب قليلاً، فاقترب جمال من المكتب ثم مال قليلاً.

كان ثمة طلاب يختلسون النظر إليهما، همس السيد سليم في أذن جمال بصوت لا يستطيع زملاؤه سماعَه، وفجأةً تبدَّلَت تعبيرات وجه جمال واتسعت عيناه، ثم عاد ببطء وجلس في مقعده، وأصاب التلاميذ الفضول عندما لاحظوا التغيير الذي ظهر على وجه جمال، فسأله زميله في الصف عما دار بصوت خفيض، فأجاب جمال بعيون جامدة دون أن يلتفت قائلاً:

- أبدًا، ليس هناك شيء.

أسند رأسه إلى المقعد وعقد يديه فوقه، وظل هكذا متجمدًا بلا حركة، تعجب الطلبة جميعًا ولسان حالهم يسأل:

- أيبكـي جمـال؟ تُـرى ما الذي قاله المعلـم وجعله يتأثر كلّ هذا التأثُّر؟

كان جمـال لا يسـمع حتـى همسـات زملائـه، أغمـض عينيـه وصعـد مباشـرة إلـى سـماء الخيـال التي لا حـدود لهـا ولا نهاية؛ فتخيـل أنـه يـدرس فـي الفرقة الأخيـرة في كلية الطـب، وأنه صار مـن جديـد مـن أوائـل الكليـة باجتهـاده وإنصاتـه فـي المحاضـرة وبأبحاثـه، فهـو يسـجل ما يراه مهمًّا في الدفتر أمامه عندما يشـرح الأسـاتذة الـدرس، وصـار خطُّـه أكثر سـوءًا وهو يحاول تسـجيل أقوال الأساتذة، حتى إنه كان لا يستطيع قراءة خطه، وأخيرًا أنهى دراسته وحصل على شهادته.

بـدأ وظيفتـه الأولـى في إحدى جزر إيجا[1]، وذهب إلى هناك بسـعادة وسـرور، وسـرعان ما انسـجم مع أهـل الجزيـرة، فأحبوه كثيـراً، إن آلامتهـم رؤوسـهم يتجهـون إلى د.جمال صباح مسـاء، وكان جمال يستقبلهم دائمًا استقبالًا حسنًا.

ذات صباح طُرق بابه قبل طلوع النهار، كان القادم رجلًا مسنًّا،

---

(١) هى جزر تقع فى بحر إيجة بين اليونان من ناحيتي الغرب والشمال، وتركيا من ناحية الشرق

يحمل في حِضنه طفلًا يتراوح عمره بين السادسة والسابعة، فقال جمال:

- خير يا خال سيف الدين، ماذا جرى لكمال؟

فأشار الخال سيف الدين بأعين دامعة إلى الطفل الذي يحتضنه وقال:

- حفيدي، حفيدي يموت يا دكتور! افعل شيئًا أرجوك.

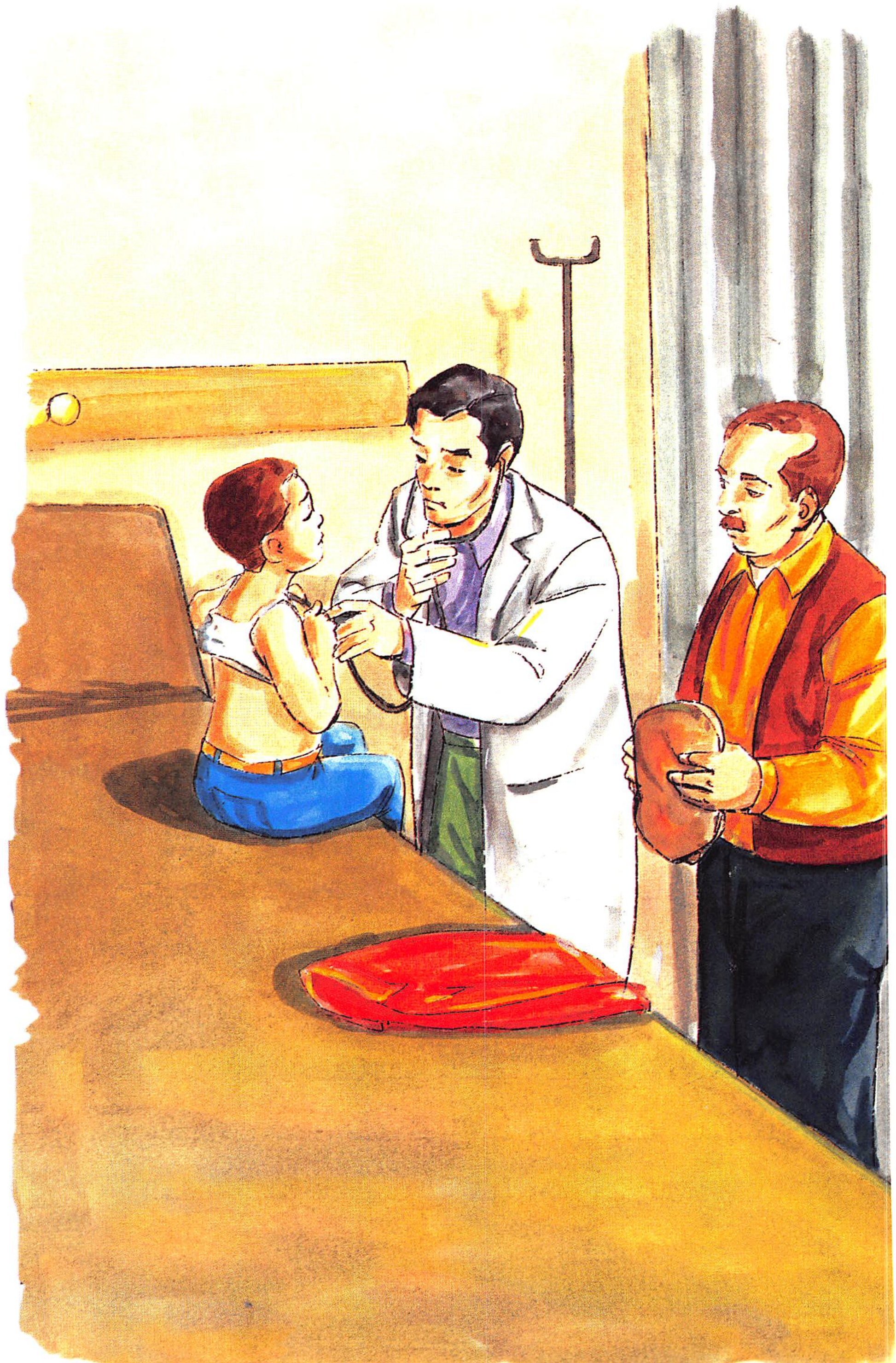
أسرع جمال وضمَّ الطفل إلى صدره، ومن فوره نقله إلى الداخل ثم فحصه، ثمّ اعتدل الطفل لما استعاد أنفاسه وجلس، فعاد جمال إلى الخال سيف الدين وقال:

- حسنًا ليس هناك داع للقلق بعد، والآن سأكتب له دواء، هذا الدواء تجده في صيدلية السيد عثمان، اذهب واشترِه وأعطِه منه صباحًا ومساءً على ثلاثة أيام، ثم ائت به للاستشارة.

أخذ الخال سيف الدين وصفة الدواء وهو يدعو ثم احتضن حفيده وخرج، وفي اليوم التالي بينما كان جمال يتناول غداءه إذ سمع صيحة قادمة من الخارج.

- أدركني يا جمال! أدركني، كمال يموت.

قفز الدكتور جمال تاركًا اللقمة التي في يده، وقابل الخال



سيف الدين عند عتبة الباب، كان الرجل في حالة يرثى لها، فقال جمال:

- ماذا حدث، ماذا بك يا خالي؟

- يا جمال أسرع! أرجوك أنقذ حفيدي.

- عاد جمال وانتزع حقيبته، وأخذ يركض مع الخال سيف الدين، فقال الخال سيف الدين:

- جلبت الدواء الذي كتبته، إلا أن الطفل أصبح غريب الأطوار بعد أن تناوله أول مرة، ثم أعطيناه الدواء ثانية في المساء فغدا أكثر غرابة، وأضحى يتنفس بصعوبة، وهذا الصباح تناول الدواء من جديد فظل يتلوى من الألم حتى فترة الظهيرة، أنقذ حفيدي يا جمال!

عندما وصلا إلى المنزل كان كمال يرقد مغشيًّا عليه، وكانت والدته تجلس قرب ولدها وهي غارقة في دموعها، وضع جمال يده على جبين الطفل وقال:

- حرارته مرتفعة جدًّا، هيا بسرعة انزعوا عنه ملابسه.

فبادر الخال سيف الدين والسيدة زينب ليجردوه من ملابسه، عندئذ كان جمال يقلب في حقيبته وإذا به يلمح الدواء على المنضدة الصغيرة، فالتفت إليه بقلق واضطراب وقال:

- من يستخدم هذا الدواء يا خال سيف الدين؟

كان الخال سيف الدين منشغلاً بنزع ملابس حفيده، فقال:

- هذا هو الدواء الذي كتبته لكمال.

ارتعد جمال فزعًا، وهُرِع نحو الدواء ثم التقطه بيده وقال:

- لا، هذا ليس الدواء الذي كتبته، أين وصفة الدواء؟

- ركضت والدته وجلبت الوصفة، فرمقها جمال بنظرة سريعة وقال:

- ليس هذا هو الدواء المكتوب في الوصفة يا خال سيف الدين، من أعطاك إياه؟

فاقترب الخال سيف الدين منه بقلق واضطراب وقال :

- يا بني أنت كتبته صباح أمس، لم يكن عثمان في الصيدلية فأعطيت الوصفة لمساعده، وطلبت منه الدواء المكتوب فيها، فوجد صعوبة في قراءتها ثم مط شفتيه وقال: «والله يا خال سيف الدين ما استطعت أن أقرأ هذا الخط» فقلت له: «يا ولدي هذا ضروري جدًّا، حفيدي في خطر»، فأعطاني الدواء قائلاً «المقروء هنا فقط الحرف الأول والأخير، هذا هو الدواء على ما يبدو»؛ غير أنه أرادني أن أستشيرك مرة أخرى، فأخبرته أنه لا وقت لدي ثم ذهبت إلى المنزل مباشرة وأعطيتُ هذا الدواء للطفل.

كاد جمال يتجمد في مكانه فصاح قائلاً:

- ربـاه ! وبـادر إلـى هاتفه المحمول وطلب مستشـفى المدينة التي تقع في الضفة المقابلة، وخلال دقائق جاءت طائرة الإسعاف، وبينمـا موظفـو الإسـعاف ينقلـون كمالًا إلـى السـيارة، نظر جمال إلـى وصفـة الدواء التـي في يديه المرتجفتين، ثـم أقلعت الطائرة، وجلـس جمـال بقرب كمال وهو يدعو لهـذا الطفل الصغير الذي يرقد أمامه مغشيًا عليه ويقول:

- اللهـم اشـفه وعافـه، ولا تؤاخذني بمثل هـذا الذنب الكبير، ربي أتضرع إليك أن تشفيه.

لـدى وصولهم المشـفى أخذوا كمالًا فـي الحال إلى الداخل، وهنـاك بـذل طبيبان جهداً كبيراً لكي يبقـى كمال على قيد الحياة، مرت الساعات، وأخيراً سُمع صوت أحد الطبيبين وهو يقول:

- الحمد لله، لقد نجا.

عندئـذ تنفس جمـال الصعداء، ثم أسـلَم جبينـه للحائط، وهو يهمس بالرباعيات الثلاث التي حفظها في الصف قبل سنوات.

ثم ترددت في بالِهِ الجُمل التي همس بها معلمه السيد سـليم ذلك اليوم عندما قال له السيد سليم:

- ليتـك لـم تكـن ذكيًّا إلى هذا الحد يـا جمال، عندها ما كنت



لأقلق عليك، أعلم أنك يوماً ما ستدرس وتصبح رجلاً عظيمًا، غير أني أخشى أن يحدث شيء بسبب خطك القبيح هذا، أسأل الله أن لا تمس الآخرين بسوء، والآن أريدك أن تفعل شيئًا لأجلي، لو سمحت عندما تجلس في مقعدك تخيل ما قلته لك، تخيل أنك يومًا ما كبرت وصرت طبيبًا، وتمَّ تعيينك في الجزيرة المقابلة، وأنا رجل مسن جاهل بالقراءة والكتابة أعيش في هذه الجزيرة، ثم مرض حفيدي وأتيت به إليك، فكتبت أنت له وصفة الدواء، إلا أن الصيدلي لم يستطع قراءة خطك فأعطاني الدواء الذي ظن أنه هو نظرًا لأن الوضع ضروري، ثم تخيل أنت ما سيحدث بعد ذلك، ونتقابل في نهاية الدرس، ما رأيك؟

تكدر جمال عندما تذكر تلك الكلمات وجثم أرضًا، فجاء أحد الأطباء ورَبَتَ على ذراعه وسأله قائلاً:

- خير يا جمال أمريض أنت؟

فقال جمال:

- لا، أنا متعب قليلاً فقط.

ثم ناداه الأطباء عندما خرجوا قائلين:

- حسبك، لقد زال الخطر، لا تقلق من أجل الطفل، فمثل هذه الأخطاء تحدث في العام الأول من ممارسة المهنة، بعد

ذلك كن أكثر حذرًا، هيا ننزل ونشرب شاي.

أشار جمال برأسه موافقًا وهو يتمتم بصوت لا يسمعه إلا هو قائلاً:

- بدأ التاريخ بخط قبيح، واليوم يوشك أن ينتهي تاريخ أحدهم بسبب الخط القبيح، اللهم هبني قدرة على تحسين خطي.

ثم قام ولحق بالأطباء، وبينما هو سائر أخذ يهمس ثانية بالجملة التي سمعها ذلك اليوم من معلمه السيد سليم ويقول:

- إن الله جميل يحب الجمال.

عندئذ اقترب منه شخص وقال له بصوت لين:

- يا جمال هل نفذت ما قلته لك؟

رفع جمال رأسه وهو غارق في خياله، فرأى وجه السيد سليم وهو ينظر إليه مبتسمًا، نظر حوله فإذا هو في الصف يجلس في مقعده، ولم يبق أحد من زملائه في المقاعد الأخرى، فقال السيد سليم بصوت ناعم:

- دقَّ الجرس، فخرج أصدقاؤك وهم ينظرون إليك حيارى، يبدو أنني لو لم أقاطعك لبقيت غارقًا في خيالك حتى المساء، هيّا أخبرني، ماذا حدث في الجزيرة، وإلى أي مقبرة أرسلت حفيدي؟

أخذ جمال نفسًا عميقًا ثم نظر إلى الشِّعر الذي سوّد به دفتره قبل ربع ساعة، حاول أن يقرأ خطه فلم يستطع، ولم تمنعه رداءة خطه وقبحه من القراءة هذه المرّة، بل دموعه التي ملأت عينيه، فاستقام واقفاً على قدميه والتقى نظره بمعلمه وعندئذ قال بصوت متهدج :

- لا تقلق يا أستاذي لقد نجا حفيدك، إن شاء الله بفضلك سوف ينجو أحفاد كثيرون، وها أنا أعدك، يومًا ما سأكون طبيبًا، ومن سيرون وصفات الدواء التي سأكتبها لن يكون في وسعهم إلا أن يثنوا على جمال خطي ومهارتي الطبية، بدءًا من هذه اللحظة أعاهدك أنني سأهتمّ بالكتابة، وإني لن أفعل ذلك من أجلي بل من أجل أولئك الأطفال المرضى، عانق السيد سليم جمالًا بحب وحنان؛ وتأثر كثيرًا، وربّت بلطف على رأس ذلك الطالب المتفوق قائلًا

- أعلم، أعلم أن هذا الخط القبيح لن يكون مستوى تلميذ متميز مثلك، والآن أحسب أن توسلاتي التي استمرت أربعة أعوام لم تذهب سُدَى، أحسنت يا دكتور جمال!

شجرة الحياة

في أحد الأعياد أتى والدي المنزلَ وفي يده شجيرة كرز، وقد ألفنا مثل هذه الأحوال، فهو محب للأشجار شغوف بها، لم نره يلقي ببذور الفواكه التي يأكلها في القمامة، بل يجمعها ويدخرها في مكان ما، ثم يبذرها في التربة متى وجد إلى ذلك سبيلًا، وكم شاهدت شجيرات الكرز، والفراولة، والتفاح قد بسَقَتْ بعد فترة، وذات يوم قال لي ضاحكًا:

- يا ولدي، هذه الشجرة قد أعطانيها عمك مصطفى، سوف أغرسها بجانب البئر، وسأخصها بالرعاية ما دمت حيًّا؛ ذلك أنها أفضل هدية أخذتها في آخر أيامي.

رَبَتَ والدي على رأسي بيده وقال:

- هيا هات المعول من الدور السفلي وتعال، سوف أَدَعُ هذه الشجرة التي سأغرسها أمانة عندك، من الأفضل أن تكون بجانبي.

أتيته بالمعول، ونزلنا إلى الحديقة، فتقدم نحو شجرة الجوز بجانب البئر، ثم قال لي:

- لقد غُرِسَت هذه الشجرة يوم وُلدتُ، وهذه عادة لدينا، نغرس لكل مولود شجرة، ويقال لها «شجرة الحياة» ينتفع الناس من فواكه هذه الشجرة وظلها وهوائها الطيب ما دامت خضراء ناضرة، يتخذ منها الطير والحشرات عُشًّا، ومن ثم يكون ذلك ثوابًا مستمرًّا، ويكون هذا الثواب لمن غُرست الشجرة على اسمه.

أخذ والدي يتأمل أوراق شجرة الجوز التي تدلت منذ زمن بعيد ويتمتم قائلاً:

- شجرتك بلغت التاسعة الآن، غير أن قامتها لا تكبر أبدًا، فهي مثلك، أظن أنك لا تعتني بها العناية اللازمة.

لم أجب، فهذه هي الحقيقة، فقد كانتُ أهتم بأكل الفواكه أكثر من العناية بالأشجار.

وضع والدي الشجيرة على الأرض، وأخذ من يدي المعول، فحفر حفرة عميقة بعدة ضربات في جانب التل المطِل على الطريق، ثم التفت إليّ وقال:

- أعطني شجيرة الكرز.

أسرعت وجلبتها، فأقامها ونصبها بعناية في الحفرة، ثم دفع

التراب مِن على حافة الحفرة بقدمه وغطاها، وقال وهو ينصب جذر الشجيرة:

- ائتني بدلو ماء من البئر.

جلبت الماء، وسقيت الشجيرة، فالتقط والدي المعول من الأرض ثم قال لي متوسلاً إليّ بنظراته:

- هذه الشجرة عزيزة على نفسي، فهي هدية أخي خاصمني عدة سنوات، والآن لقد تقدم بي العمر، ولا أحسب أني سأعيش طويلاً؛ لذلك أريد منك بعد وفاتي أن تهتم بهذه الشجرة من أجلي.

لا عجب أنه لاحظ أنني لم أستوعب شيئًا مما قال فسألني:

- أتحب أن يقاسي والدك العذاب في القبر؟

عجبت كثيراً، ونظرت إليه مضطربًا وقلت:

- لا، بالطبع لا أحب! أخذ نفسًا عميقًا ولامس أغصان الشجيرة بأطراف أنامله، ولا زلت أنا أحاول أن أعي ما سيقوله، غير أنه لم يفصح عن شيء، وإنما قال:

- إذًا، أبقِ شجرة الكرز هذه دائمًا خضراء ناضرة، هذه وصيتي إليك؟ هلا تفعل هذا من أجل والدك، فقلت متلعثمًا:

- سمعًا وطاعة يا أبي.

علق نظره بي وقال:

- هذا وعد؟

فأجبت:

- وعد.

عندئذ لمعت عيناه، ولم يقل شيئًا، فتشوش فكري، وحاولت أن أجد العلاقة بين السبب والنتيجة فيما قاله، ولكني لم أصل إلى شيء، كما أنني أيضًا لم أسأله، ووقفت دَهِشًا خلف والدي وهو يسير نحو الباب الخارجي وقد اتخذ المعول عكازًا يستند إليه.

مضى عشرون عامًا، وكان والدي قد فارق الحياة قبل ستة عشر عامًا، وخلال هذه المدة عُيِّنتُ معلمًا وتزوجت، وكنت أشغل وظيفة في قرية بعيدة جدًّا عن قريتي، واقتضت ضرورة وظيفتي التنقل من قرية لأخرى، فنسيتُ شجرة الكرز، ونسيتُ العهد الذي أخذته على نفسي مع والدي.

وفي صبيحة إحدى الأعياد عُدتُ أنا وزوجتي وأولادي من القرية التي أعمل فيها إلى قريتي، وكعادتي في زيارة المقابر زرت قبر والدتي ووالدي وأجدادي، وبينما كنت عائداً إذ بي أسمع



صرير باب المقبرة الحديدي، فنظرت نحوه باضطراب، كان القادم شيخًا ذا لحية بيضاء فصحت بشوق قائلًا:

- عمي مصطفى.

وهُرعت إليه بفرحة وسرور، تعايدنا، كان ثمة مِعْوَل صغير في يده وعدة شجيرات، فقال لي مشيرًا إلى القبور:

- ساعدني إذا كان لديك وقت، لنغرس هذه الشجيرات عند قبور المرحومين.

عمي مصطفى هو الأخ الأصغر لأبي من ثمانية إخوة، وقد عاش مغاضبًا لوالدي سنوات بسبب واقعة لا يعلمها أحد، والشيء الوحيد الذي أتذكره بخصوص هذا الأمر أنهما تصالحا في صباح يوم عيد حينما كنت في التاسعة من عمري.

أخذت الشجيرات من يد عمي، ومشينا سويًّا؛ فعلِق نظري بالأشجار المنتصبة في بداية المقابر، فبادرت قائلًا:

- ثمة أشجار ضخمة هنا، فهل هناك داعٍ لغرس أشجار أخرى؟

لم يجبني، وأخذ يتلو آيات من المصحف الشريف الذي يحمله، فانتظرته بصمت حتى ينتهي من تلاوته، وَضَعَ المصحف في حقيبته على مكان مرتفع، ثم تقدَّم خطوة نحو القبر متضرِّعًا بالدعاء، وشرع يحفر الأرض، وبينما كان يغرس آخر شجيرة

التفت وقال:

- لم يبق لتلك الأشجار الضخمة من العمر شيئًا، أما التي نغرسها هذه فستعيش طويلًا، وبهذا يُخفَّف العذابُ عن المرحومين في قبورهم سنين طويلة.

- ...!

في تلك اللحظة ارتعدتُ فزعًا، وتذكرت السؤال الذي وجهه لي والدي قبل سنوات بينما كان يغرس شجرة الكرز حين سألني قائلاً:

- «أتحب أن يقاسي والدك العذاب في قبره؟»

لم تَخْفَ غرابة حالي هذه عن عمي، فقال:

- خيرًا، لَمَ اصفر وجهك فجأة؟

لم أدرِ بِمَ أجيبه، وأخيرًا تمالكت نفسي وقلت:

- لقد قال والدي هذا القول قبل سنوات، ماذا يعني كلّ هذا؟ وكيف يُخفف عذاب القبر؟

ابتسم عمي وجلس على الأرض، وقال وهو يمسك غصن الشجيرة بيده:

- سمعت أن رسولنا الكريم كان يفعل ذلك، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال:

مر النبي ﷺ بقبرين، فقال : «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير؛ أما أحدهما فكان لا يستبرىء من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة فشقَّها نصفين، فغرز في كل قبر واحدة، ثم ختم حديثه قائلاً: «لعلَّه يخفف عنهما ما لم ييبسا».[٢]

ثم قام عمي من مكانه وقال وهو ينظر في عيني بحبّ:

- ومن ثم فنحن أيضًا نغرس الأشجار في القبور حتى تخفف عذاب الراقدين ما دامت خضراء ناضرة، رغم أني لا أعرف ما علاقة الشجرة بتخفيف العذاب، ولكن هذه هي السُّنة، فقد فعل رسولنا ذلك ونحن أيضًا نتبعه.

تجمدت في مكاني، وبعد لحظات رفعت رأسي ونظرت إلى الشجرة المرتفعة التي تعلو قامتي، فإذا هي شجرة نبق، حافلة بالثمار الصفراء، مددت يدي وأخذت واحدة، وجدتها طرية للغاية، فقسمتها نصفين بأظافري، كانت ثمة دودة بداخلها تتلوى محاولة أن تخفي نفسها، في تلك اللحظة عَلَت ثغري ابتسامة، والتفتُّ إلى عمي وسألته قائلاً:

- أتأكل الطيورُ النبقَ؟

---

(٢) رواه البخاري



فقال:

- طبعًا، الطيورُ تأكل كلَّ ما تجده.

تركت النبقة التي كانت في يدي وقطفتُ واحدة أخرى، فنصَّفتها أيضًا، وهذه المرَّة لم تكن هناك دودة بداخلها، وضعتها في فمي، كانت حامضة قليلًا إلا أنّ مذاقها رائع، كانت في فمي خمس أو ست بذور، فأخذتها في راحتي وتأملتها فترة، فجالت بخاطري الفاكهة التي كان يأكلها والدي، وبذورها التي لم يكن ليُلقيها أبدًا في القمامة، فقلت لعمي:

- كلّ شجرة هي مصنع ثواب لمن غرسها، الأكسجين الذي تمنحه للبيئة من حولها، الهواء الملوث الذي تُنَقِّيه، ففواكهها التي تثمرها، ظلها، كل ما فيها ذو منفعة للأحياء، ومن ثم فإن غارس الشجرة يظل يُثاب طالما ينتفع بها الأحياء، نعم السر هنا! فقد غرس نبيُّنا الكريم ذاك الغصن من أجل ذلك الرجل المدفون في تلك المقبرة، فالأوراق تمنح الأكسجين ما لم تيبس، ومن ثم يُعد الرجل الذي يقاسي العذاب فاعل خير، وبالطبع يخفَّفُ عنه العذاب!

لزمت الصمت لحظة، واغرورقت عيناي بالدموع، وسألت عمي:

- عمي، هل لا تزال شجرة الكرز التي في حديقتنا موجودة؟

تفكر عمي برهة ثم قال:

- مع الأسف لقد يبست!

عندئذ شعرت كأن العالم قد انهار من حولي، وسقطت في مكاني، فاضطرب عمي لحالي ومالَ عليّ وقال:

- ماذا حدث؟ أخبرني!

رفعت رأسي ونظرت إلى عينيه وأجبته بصعوبة قائلًا:

- لقد كانت هي الشجرة التي أهديتَها أنت لوالدي قبل سنوات، وكانت ذكرى صلحك معه؛ لهذا أَحَبَّها والدي كثيرًا، لقد غرسناها في الحديقة معًا، فكان يهتم بها بنفسه حتى وفاته، وفي آخر أيامه قال لي «اعتنِ جيدًا بشجرتي، حافظ عليها لتبقى خضراء ناضرة، هذا وعد منك، لا تنسَ الوعد»، ثم انتقل إلى دار البقاء، ولكني لم أهتم هذه الشجرة، بل إنني تركت القرية وذهبت، وبالطبع نسيت شجرة الكرز أيضًا، هل معنى هذا أن أمانة والدي قد يبست؟

نهضت من مكاني وقلبي يؤلمني، وأتيت المنزل أجرُّ أذيال خيانتي للأمانة، وعدم وفائي بوعدي، ونزلت الحديقة فورًا، فأحزنني ما رأيت، نمَت شجرة الجوز قدر ما تستطيع وصارت

ضخمة، أما شجرة الكرز فقد جفَّت ويبست، أشرفت كل أغصانها على الانكسار والسقوط إلى الجذر، ولم يبق منها إلا جذع غليظ منتصب يعلو الأرض بثلاثة أمتار أو أربعة، وحتى قشوره لم يبق منها أثر، وأصاب التشقق أماكن كثيرة من جزئه العلوي.

كان الغصنان المتدليان يمينًا ويسارًا لهما مغزى عندي، وكأن لسان حالهما يقول لي «إياك أن تقترب منّا!».

تقدمت للأمام نحو الشجرة، ولمست بيدي الجذع الذي تشققت منه أماكن كثيرة، فقلت ودموعي المنهمرة من عينَيَّ تتساقط على خدي:

- سامحني يا أبي، فأنا لم أهتم بأمانتك.

ظللت هكذا فترة ثم سرت مباشرة إلى شجرة الجوز، وجلست تحتها ومن هناك أخذت أتأمّل شجرة الكرز، ولكني لم أقوَ على تحمل الهمّ الذي ملأ ما بين جوانحي، فقمت وخرجت من الحديقة مسرعا، وعندما دخلت المنزل قلقت زوجتي وأولادي لدى رؤيتهم حالتي، فقلت لهم:

- لا تقلقوا، إنّما كنت أسترجع ذكرياتي غير أنَّ قلبي لم يتحمَّل، فما سألوني عن شيء بعدها.

لم أصبر حتى نهاية العيد، عايدتُ أصدقائي، ثم عدت فورًا

إلى القرية التي أعمل بها، ولم أذهب إلى قريتي ثانية في الأعياد أو المناسبات التي تلت هذا العيد، انقضت ست سنوات، وذات يوم واجهتني زوجتي قائلة:

- لم تكن ذكرياتك ذلك اليوم هي ما أبكاك، ولم أسألك حتى الآن؛ عليك أن تخبرني بما حدث ذلك اليوم، فأنت لم تذهب إلى قريتك منذ سنوات، وهذا الأمر غير مريح على الإطلاق.

أصرت زوجتي أن أتكلم، وأخيرًا لم أتحمل وأخبرتها بما حدث، فقالت لي:

- أنت مخطىء، إنّ قطع صلتك ببلدك أمر لا يرضي الله مهما كان السبب، فأهلك هناك، لو كان في قلبك ولو قليلًا من تقوى الله لتراجعت عن هذا الفعل، وإلا فاعلم أن الله تعالى أمرنا في كتابه الكريم بصلة الرحم، إنّ ما تفعله ليس من سلوك المسلمين ألبتة.

كانت زوجتي محقة، فقد جالت بخاطري الآية التسعون من سورة النحل التي يقرؤها الإمام في خطبة كل جمعة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سُورَةُ النَّحلِ: ١٦/٩٠].

فأجبتها وأنا أنظر في عينيها:

- حسنًا، من الآن فصاعدًا سنذهب إلى القرية كلما سنحت الفرصة، أتمنى أن يغفر الله لي ما فعلته حتى اليوم.

وفي أول عيد عُدتُ من جديد إلى قريتي، وذهبت مباشرة إلى المقابر وزرت قبر والدي ومقابر أقربائنا الآخرين، ومكثتُ كثيراً هناك ثم عدت إلى المنزل، ولكني هذه المرة لم أفكر في المرور على الحديقة بل كنت أنوي أن أذهب مع زوجتي وأولادي لنُعايد أقاربنا، وعندما دخلت المنزل وجدت زوجتي تنظر إليّ وهي مبتسمة فأشارت إلى الحديقة وسألتني قائلة:

- أرأيت شجرة الكرز؟

فنظرت إليها بغرابة وأجبتها موبِّخا:

- ماذا تعنين بهذا الآن؟ أجئنا إلى هنا لكي تُذكريني بهذا؟

اقتربت مني وهي لا تزال تبتسم ثم تأبطتني وأخرجتني إلى هناك، سرنا مباشرة إلى الحديقة، فكاد قلبي يتوقف من هول ما رأيت على سور الحديقة الذي كان خربًا متصدِّعًا، قالت زوجتي:

- انظر، أشاهدت في حياتك مثل هذه الخضرة الجميلة؟

- يا إلهي! كان جذع شجرة الكرز مغطَّى بالأوراق الخضرة الناضرة، لكن كيف حدث هذا؟ فقالت زوجتي:



- العُلّيق أو اللبلاب، غرسه عمك بجانب شجرة الكرز قبل ستِّ سنوات، والآن غطى اللبلاب الشجرةَ بأكملها!

شعرت كأن لساني عُقِد، وتقدمت من فوري ناحية الشجرة، مددت يدي ولامست أوراق اللبلاب، كم كانت كثيرة!

جاءت زوجتي بجانبي، وتأبطتني ثم قالت:

- أضحت مثلما أراد والدك تمامًا، أليس كذلك؟ خضراء ناضرة، والآن تكون قد وفيت بوعدك معه.

اغرورقت عيناي بالدموع، لمست بأناملي جذع شجرة الكرز اليابس وهمست قائلاً:

- وعدًا عليّ، ستظل هذه الشجرة خضراء ما دمت حيًا.

ثم أسرعتُ إلى منزل عمي بفرحة وسرور، كان في الفناء يتوضأ لصلاة الفجر، وشفتاه تردد الدعاء باستمرار على غرار أخيه الأكبر، فلمّا انتهى من وضوئه قام ومياه الوضوء تتقاطر من لحيته البيضاء، فأقبلت عليه واحتضنت جسده النحيل وقلت:

- شكرًا جزيلًا يا عمي، إنك أهديتني أفضل هدية عيد في حياتي.

مسح خدي بيديه المبتلتين وقال بصوت متقطع:

- مرحبًا بك يا ابن أخي، لقد اشتقنا إليك كثيرًا.

- مرحباً يا عمي، أنا أيضًا اشتقت إليكم كثيرًا.

ثم أحضروا طبقًا به خوخ، وأخذنا نأكل بشهية كبيرة، نظر عمي إلي بحبٍّ وقال:

- عاش والدك ومات وهو يعشق الأشجار، لأنه أدرك جيدًا قول رسولنا الحبيب ﷺ حينما قال: «**إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**».[٣]

نظر عمي إلى بذرة الخوخة التي أكلها، وشخص ببصره برهة، ثم التفت إلي وقال:

- أأخبِرُك بشيء مضحك؟

فأشرت برأسي بالموافقة، فبدأ حديثه وهو ينظر إلى شجرة التوت قِبالَتَنا قائلًا:

- هل تعرف ماذا كان سبب خلافي مع والدك عدّة سنوات؟ إنها شجرة الكرز.

لم أفهم شيئًا، وعندما لاحظ أني أراقبه بأعين ملؤها السؤال، تابع حديثه قائلًا:

---

(٣) رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك

- كنا عازبين يومئذ، نعيش في منزل والدنا، فكنا نعيش معًا، وثمة شجرة كرز كان والدك يحبها كثيرًا، كان يمرُّ بجانبها طريق ضيق جدًّا، وذات مرة كنت ذاهبًا بالحمار لسقيا الماء، فاصطدم رأسي بغصنها، فثارت في نفسي ثائرة الغيظ والحنق، فانتزعت الفأس وقطعتها من جذورها؛ فغضب والدك واستاء مني كثيرًا، وعندما قلت له:

- أتغضب مني بسبب شجرة بسيطة.

صاح قائلًا:

- إنها ليست مجرد شجرة بسيطة، لقد كانت شجرة حياتي.

فابتسم عمي وصمت فترة طويلة ثم قال:

- ذلك اليوم خاصمْنا بعضنا، واستمرَّ خلافُنا هذا سنوات، غير أنني ظللت أحبه رغم كل شيء، وظل هو أيضًا يحبني، ثم تصالحنا في ذلك اليوم الذي غرستم فيه شجرة الكرز في الحديقة، إذ إنني أعطيته إياها عندما جئت أصالحه وأقبل يده ذلك العيد، كي تكون بدلًا عن الشجرة التي قطعتها قبل سنوات، وكانت هذه الشجرة هي ذكرى صُلحنا.

تأثرت كثيرًا وقلت:

- إذًا كانت أهم هدية أهديت إليه في حياته، لكنها جفت ويبست بسببي.

أمسك عمي بيدي وقال:

- لا لم تيبس، فهي كما تمناها في وصيته تمامًا، خضراء ناضرة منتصبة، تحط فوقها الطيور، وتعشش فيها الهوامّ والحشرات، وكما قلت أنت أيضًا تمنح للعالم الحياة بهدير كل ورقة من أوراقها، إن شاء الله لن يعاني والدك ضيقًا أو عذابًا في قبره ما دامت هذه الخضرة.

أحنيت رأسي، وقلت محاولًا ابتلاع الفُواق الذي هاجم حلقي:

- أنت محق يا عمي، فهي -كما قال في وصيته تمامًا- منتصبة خضراء ناضرة، وستظل هكذا ما دمت حيًّا.

وفي هذه الأثناء سمعنا أذان الظهر، فقام عمي مستندًا على كتفي وقال وهو يمد يده إلي ببذرة الخوخ:

- ما أضاع والدك أي بذرة أكلها سدى؛ خذها وادفنها في الأرض، فداخل هذه البذرة حياة نائمة، ستستيقظ عندما تدخل إلى التربة كالبشر.

ثم تناول عكازه، وشرع يسير إلى المسجد بخطوات بطيئة

الخوف

«السادة الركاب المسافرين من إزمير[٤] إلى أضنة[٥]، الحافلة على وشْك التحرك، رجاء الزموا أماكنكم.»

عندما سمع عادل التنبيه وضع تحت إبطه جريده كانت فى يده، ورشف رشفة أخيرة من كوب الشاي، ثم أخذ حقيبته وسار نحو الحافلة عند رصيف المحطة، وما كاد يمشي خمس خطوات حتى قطعت طريقه عجوز، ترتدي ثيابًا رثة بالية، وقد ظهرعلى وجهها الخجل، وتكاد رقبتها تلامس كتفها، فمدت يدها وقالت وهي تنظر في عيون عادل:

- بني يبدو أنك مسافر، هلا تتصدق عليّ بشيء مما رزقك الله.

فحص عادل المرأة المسنة بنظراته من أعلى إلى أسفل، فلاحظت المرأة التردد في عينيه، فأردفت بصوت متوسل أكثر حزنًا:

---

(٤) هى مدينة ساحلية تقع فى غرب تركيا

(٥) مدينة زراعية تقع جنوب شرق تركيا

- رسولنا الحبيب ﷺ قال: «**إن الصدقة تقي مصارع السوء**»؛ فربما حفظك الله من بلاء شديد بفضل الصدقة.

فَكَّر عادل برهة، ولم يكن في جيبه نقود كثيرة، ولكن أيًّا كان فهو عائد إلى مدينته، وهناك يمكنه أن يأخذ من عائلته قدرًا من المال عندما يصل إلى المنزل، فهمّ ليمُدّ يده إلى جيبه، فإذا به يسمع صوتًا وراءه:

- يا أخي، حذار أن تنخدع بكلام هؤلاء الشحاذين، فجميعهم أغنى مني ومنك، يرتدون ثيابًا قديمة، يقولون كلامًا يستعطفون به الناس، فيضربون على الوتر الحساس لدى الإنسان، لا تكترث بهم؛ لا تعطِها شيئًا.

التفت عادل ونظر بدهشة إلى الرجل المتحدث فإذا هو بائع سمين، منشغل بشَيِّ الذرة، ولما رأى نظرات عادل ضحك بتهكم وقال بوقاحة:

- ويبدو أنك لست من الأغنياء، أظنّ أنّك طالب، أليس كذلك؟

نظر عادل إلى الرجل نظرة شزْراء وقال:

- نعم أصبت، أنا طالب جامعي، فقال الرجل:



- إذًا فأنت محتاج إلى المال أكثر من هذه المرأة.

هز عادل رأسه يمينًا ويسارًا وكأنه يقول متعجبًا:

- سبحان الله!

ثم عاد والتفت إلى المرأة، وهو ما كانت تنتظره، فأخرج يده من جيبه وقال بصوت رحيم:

- خذي هذه النقود فهي كل ما في جيبي.

نظرت الشحاذة بتردد إلى المال الذي قدمه إليها عادل، وشخصت ببصرها إليه ثم قالت:

- لا، ما دامت هذه النقود هي كل ما تملك فلتبق معك، بائع الذرة محق، أنت أولى بهذا المال مني.

عندئذ تكرر النداء مرة أخرى، وكان المعاون ينادي من بعيد ليأتي الركاب إلى الحافلة، وهنا نظر عادل إلى بائع الذرة بسخط، وقبض على المال في راحته ثم مدَّ يده ودسَّه في يد الشحاذة، وقال لبائع الذرة بصوت مرتفع بينما كان يسير مسرعاً نحو الحافلة:

- لست بحاجة إلى هذه النقود، فأنا لست فقيرًا، غير أن بعض الناس ينقصه الشعور بالرحمة، وفي رأيي هذا الأمر أسوء من الفقر.

نظرت الشحاذة إلى عادل من خلفه بشيء من الدهشة، أما بائع الذرة فكان يحاول إدراك معاني الكلمات التي سمعها، ركب

عادل الحافلة، وهناك لاحظ طفلًا ينظر إليه بحيرة وتعجب، فابتسم إليه بينما كان يتهيأ للجلوس، ثم جلس على المقعد المجاور للنافذة، ووضع حقيبته تحت قدمه؛ في تلك الأثناء أتت الشحاذة باب الحافلة وأخذت تدعو لعادل وتقول:

- اللهم يسِّرْ له طريقَهُ وأَسْعِدْه في حياته.

كانت الحافلة على وشْك التحرك، فقال الطفل للمعاون وهو يُشِير بيده إلى رجل يتحدث في هاتفه المحمول:

- أبي قادم، من فضلك انتظر دقيقة أخرى.

أدار والد الطفل ظهره للحافلة وتحدث على عجل قائلًا:

- سأسأل السائق عن موعد وصولنا إلى قونيا[٦] ثم أخبركم في أول استراحة، اتركوا هاتفكم مفتوحًا، سننزل في منتصف الليل عند مفترق طرق، سنتقابل هناك، لا تتأخروا حتى لا نتعرض ليلاً لاعتداءات الذئاب والكلاب.

كان المسافرون على عجلة من أمرهم، وذهب المعاون إلى الرجل وأنذره، فركب الرجل الحافلة بعد أن قال بضع جمل ثم مرّ من أمام ركبتي الطفل وجلس بجوار النافذة، وبعد أن جلس

---

(٦) من مدن تركيا. تقع في وسط جنوب الأناضول

كل المسافرين في أماكنهم، تحركت الحافلة، فأخذ المعاون مكبّر الصوت بسرعة وشرع ينبه المسافرين كعادته قبل كل رحلة قائلًا:

- السادة المسافرين، نتمنى لكم جميعًا سفرًا آمنًا، نرجوكم أن تغلقوا هواتفكم المحمولة طوال الرحلة من أجل سلامتكم.

بدأت الرحلة وقد تخللها دفء المكيف في يومٍ من أيام الشتاء البـاردة، أمَّا المسـافرون فمنهم مَن يقـرأ كتابًا، ومنهم من يتحدث مع جليسه، فأغلق الرجل هاتفه بعدما سمع تحذير المعاون.

أخـرج عادل كتابًـا صغيرًا من جيب معطفه الداخلي، قلَّب في صفحاته وعندما جاء إلى الصفحة التي يبحث عنها بدأ يقرأ.

لـم تمـض سـوى نصف سـاعة تقريبًا حتى سُـمع صـوت رنين هاتـف، نهـض المعاون واقفًا على قدميه، وعـاد إلى الخلف وهو شـاخص ببصره، فتح فمه وهمّ أن يقول شـيئًا غير أن والد الطفل سبقه فغضب قائلاً:

- أخـي هـل أنـت أصـمّ؟ ألـم يقـل المعاون قبل قليـل إنه لا بد مـن غلـق الهواتـف، كيف تخاطر بحياة كل هؤلاء المسـافرين في هذا الشتاء القارس؟

أغلـق عـادل -وهـو مرتبـك- الهاتـفَ الذي أخرجه مـن جيبه،

وقد احمرَّ وجهه من فرط الخجل، ثم قال بصوت خفيض:

- عذرًا لقد نسيت أن أغلقه.

وبينما كان المعاون يجلس في مقعده هتف الرجل الذي تحدث سابقًا وقال غاضبًا:

- ما معنى نسيت؟ انتبه قليلًا، فأنت رجل كبير.

انكمش عادل في مقعده بسخط، وضغط على الهاتف في راحته بكل قوة ثم قال مكررًا:

- آسف يا سيدي.

ثم تمتم هامسًا:

- ها قد أغلقته.

التفت الرجل أمامه وهو لا يزال يتحدث وكأنه يهمس لنفسه ويقول:

- لا يا صديقي لا! بهذا الشكل لن نكون رجالاً حقًّا، أيستخف المرء بحياة البشر هكذا؟

ثم عمّ الجميعَ الصمتُ، فخجل عادل كثيرًا وثار في نفسه قائلًا:

- كيف نسيت أن أغلق هذا الهاتف؟ ألم أستطع أن أكون



متيقظاً أكثر؟ فها هو حالي الآن... أحرجت نفسي أمام الجميع، الرجل محق تمامًا في غضبه عليّ، إن لم أسمع المعاون فلا بد أن أكون قد رأيت الإعلان المكتوب بحروف كبيرة على زجاج الحافلة الأمامي: «رجاءً أغلقوا هواتفكم المحمولة»، والحمد لله أنني لم أتسبب في وقوع حادث.

ثم عاد وفتح كتابه الصغير ثانيةً، وتابع القراءة من الموضع الذي توقف عنده، وبعد وقت غير قليل مرت الحافلة من مدينةٍ ما، وما إن اقتربت من المحطة حتى سُمع صوت المعاون وهو يقول:

- السادة المسافرين، رجاءً لا تغادروا أماكنكم، الحافلة على وشْك الانطلاق، إلا أن المسافرين رغم هذا التنبيه قد نزلوا واحدًا تلو الآخر، وكان الرجل الذي غضب على عادل قبل قليل يستعد هو الآخر للنزول، ولما وصل إلى الباب سأل السائق:

- تُرى متى سنصل إلى قونيا؟ فأجابه السائق على الفور:

- سنصل في الثالثة والنصف ليلًا إن شاء الله، نزل الرجل وفتح هاتفه ثم انتظر عدة لحظات وقال:

- إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

أغلق هاتفه وفتحه من جديد، وحدث نفسه في هذه المرّة وهو غاضب:

- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! لا يوجد هنا إرسال، إن استخدام هذا الخطّ كان خطأ منذ البداية، فشبكته ضعيفة حتى في المدينة.

نظر حوله وأخذ يبحث عن مكان يمكنه أن يتصل منه هاتفيًّا، ولما لم يجد عاد إلى المعاون وقال:

- آه، لا بد لي أن أجري اتصالاً هاتفيًّا، انتظروني خمس دقائق، سأجري المكالمة في مكان ما ثم أعود على الفور.

فأجابه المعاون غير مكترث:

- بالطبع لا يمكن يا سيدي! فقد أخذنا الراكب الذي كان ينتظر هنا، وسنتحرك خلال دقيقة، يمكنك أن تجري اتصالك في المحطة القادمة.

كان عادل ينظر إليهما بطرف عينه، ولما رأى أن الرجل ليس بيديه حيلة أخرج هاتفه من جيبه وفتحه ثم نادى الغلام الجالس بجانبه وقال له:

- على ما يبدو الأمر مهمّ جدًّا بالنسبة لوالدك، خذ هذا الهاتف وأعطه إياه، ربما يقضي له حاجته، ولكن إياك أن تخبره أن الهاتف لي، وإلا فلن يقبله بعدما حدث بيننا.

في البداية تردد الطفل ثم مد يده بهدوء وأخذ الهاتف ونزل على الفور.

- أبي، خذ هذا الهاتف واستخدمه، فشبكته قويّة.

نظر الرجل إلى ولده بأعين ملؤها السؤال، فهزَّ الطفل كتفه وقال:

- أعطانيه أحدهم، اقض به حاجتك ثم نعيده لصاحبه.

أخذ الرجل الهاتف من فوره، وطلب الرقم بسرعة، ووضع الهاتف على أذنه وانتظر لحظات ثم قال:

- يا للأسف، هذه المرة المشكلة في الهاتف الآخر، فهو غير متاح.

حاول الرجل مرة أخرى، ولم يُفلِح في الاتصال، فأعطى الهاتف لابنه بناء على تنبيه المعاون، وركب السيارة وقد استشاط غضبًا؛ وأعاد الطفل الهاتف إلى عادل دون أن يُظهر ذلك لوالده، تحركت الحافلة ثانية، وما إن ساروا مسافة نصف ساعة حتى سُمع صوت رنين هاتف في الحافلة، تطلعت كل العيون إلى ذلك المقعد، وكان الجميع ينظر إلى عادل غير أن هاتفه لم يكن هو الذي يرن هذه المرة، صاح المعاون بغضب عاصف:

- هاتفُ مَنْ يَرِنُّ؟

فزع والد الطفل، كان هاتفه يرن، فقد نسي أن يغلقه حينما ركب الحافلة وهو غاضب.

- آه آه!

ومن فوره أخرج الهاتف وأغلقه، جاء المعاون ووبخه قائلًا:

- عمي، كنت غاضبًا على هذا الأخ لأنه يخاطر بأرواح المسافرين، ماذا تُسمِّي ما فعلته إذًا؟

قطَّب الرجل حاجبيه وبينما كان سيتحدث تدخل عادل قائلًا:

- لا بأس، انتهى الأمر، لا داعي للإطالة، هذا هو حال البشر، الحمد لله أننا تداركنا الأمر قبل أن نتسبب في وقوع حادث.

صمت المعاون لحظة، وامتلأت أعين المسافرين جميعًا بنظرات غاضبة، استشعر عادل هذه النظرات وأحس أن الرجل قتله الخجل، لم يتحمَّل الوضع فهمس إلى المعاون في أذنه قائلًا:

- إن لم يكن هناك مانع، أيمكنني أن أنتقل إلى المقعد الأخير؟

أدرك المعاون أن عادلًا ملَّ فأراد تغيير مقعده، ولما رأى أن المقعد الأخير فارغ قال له:

- يمكنك الانتقال، فنهض عادل وجلس في أحد أماكن المقعد الأخير الذي يتألف من خمسة مقاعد، عندئذ أحس بالراحة قليلًا، وأخذ نفسًا عميقًا وفتح كتابه الصغير وأردف يقرأ مِن المكان الذي توقّف عنده.

وبعد برهة لاحظ أنَّ أحدهم يتقدم نحوه مباشرة من ممر الحافلة، تابع قراءته دون اكتراث.

- مرحبًا، إذا كان لا يزعجك أيمكنني الجلوس بجانبك؟

كان المتحدث هو الطفل الذي أعطاه الهاتف قبل قليل، فقال عادل بلا تردد:

- لا، وما يزعجني في ذلك؟ تفضل بالجلوس.

جلس الطفل بجانب عادل، وقال له مبتسمًا:

- اسمي إسماعيل.

- ...؟

تعجب عادل من الطفل، فهو طفل ودود محبوب، ثم أردف الطفل يقول بنفس الابتسامة:

- رأيتكَ في محطة الحافلات وأنت تعطي نقودًا لتلك العجوز، أحقًّا أعطيتها كل ما تملك؟

لم يرد عادل، وأسند ظهره إلى الخلف، ونظر إلى الطفل، وقال مبتسمًا:

- اسمي عادل.

ثم صوب نظراته إلى الناحية الأمامية مباشرة وقال:

- هل سيغضب والدك منك لجلوسك بجانبي؟

مطّ إسماعيل شفتيه وقال:

- أبي ليس لديه مشكلة معك، إنه شخص عصبي قليلًا، يغضب لأي شيء، صدقني لقد أحزنني كثيرًا ما قاله لك، أعتذر لك نيابة عنه.

ابتسم عادل وقال:

- أعانكم الله إذا كان والدك دائمًا هكذا.

- في الواقع هو ليس هكذا دائمًا، عندما نتجاوز اللاذقيّة سننزل بجانب الغابة، وهو مكان مهجور من المحتمل أن يكون خطرًا في منتصف الليل، فهو قلق من أن نتعرض لاعتداءات الكلاب عندما ننزل هناك، وبالطبع هذا هو ما أغضبه، رجاء اعذره.

لم يخف عادل تعجبه فقال دهشًا:

- غريب جدًّا.

- نعم، فوالدي رغم قوته إلا أنه يخشى الكلاب، وأعتقد أن هذه عادة موروثة لديه منذ الطفولة.

عمّ الصمت برهة ثم قال إسماعيل فجأة:

- قلت لبائع الذرة إنك طالب جامعي، بالمناسبة ماذا ستعمل عندما تتخرج في الجامعة؟

قال عادل:

- مدرس، وأنت هل تَدْرُس؟

- نعم أنهيت الصف السادس، وهذا الصيف عُيِّنَ والدي في إزمير، وهناك سأكمل دراستي، سجلت في المدرسة والآن رجعنا.

وبينما كان عادل يعزم على وضع كتابه الصغير في حقيبته سأله إسماعيل قائلًا:

- ما أصغر هذا الكتاب! ما هو؟ هل هو رواية؟

نظر عادل إلى إسماعيل بدهشة ورفع الكتاب ثم قال:

- إنه القرآن الكريم، ألم تعرفه من غلافه؟

فحص إسماعيل الكتاب الصغير الذي في يد عادل بدقة وقال:

- حقًّا، ولكنه صغير الحجم، يمكن أن أحمله بيدى، رأيتُ مصحفًا كبيرًا مثله معلَّقًا في بيت جدتي.

فتح عادل صفحة من المصحف عشوائيًّا وقال:

- هذا صغير، يسهل حمله، كما أن جيبي يسعه، وهكذا أستطيع قراءته حتى في الطرقات، هل تستطيع قراءة القرآن؟ فأجاب إسماعيل بحزن:

- لا، لا أستطيع، ولكني لطالما وددت أن أقرأه، هل في تعلمه مشقة؟ وهل هذا سؤال؟ بالطبع تعلمه صعب، أليس كذلك؟

اضطرب عادل وقال:

- أتريد حقًّا أن تتعلمه.

- بالطبع أريد، ولكن هذا صعب.

- لمَ؟

- لأنه لا يوجد في عائلتي من يعلمني.

وضع عادل يده على كتف إسماعيل وقال له:

- يمكنني أن أعلمك الحروف ونطقها خلال بضع ساعات، وبعد ذلك تُنمي أنت هذه المعلومات، هذا بالطبع إن كنت تريد حقًّا أن تتعلم.

فقال إسماعيل وقد أصابه الدهش:

- ماذا؟ بضع ساعات؟ كيف هذا؟

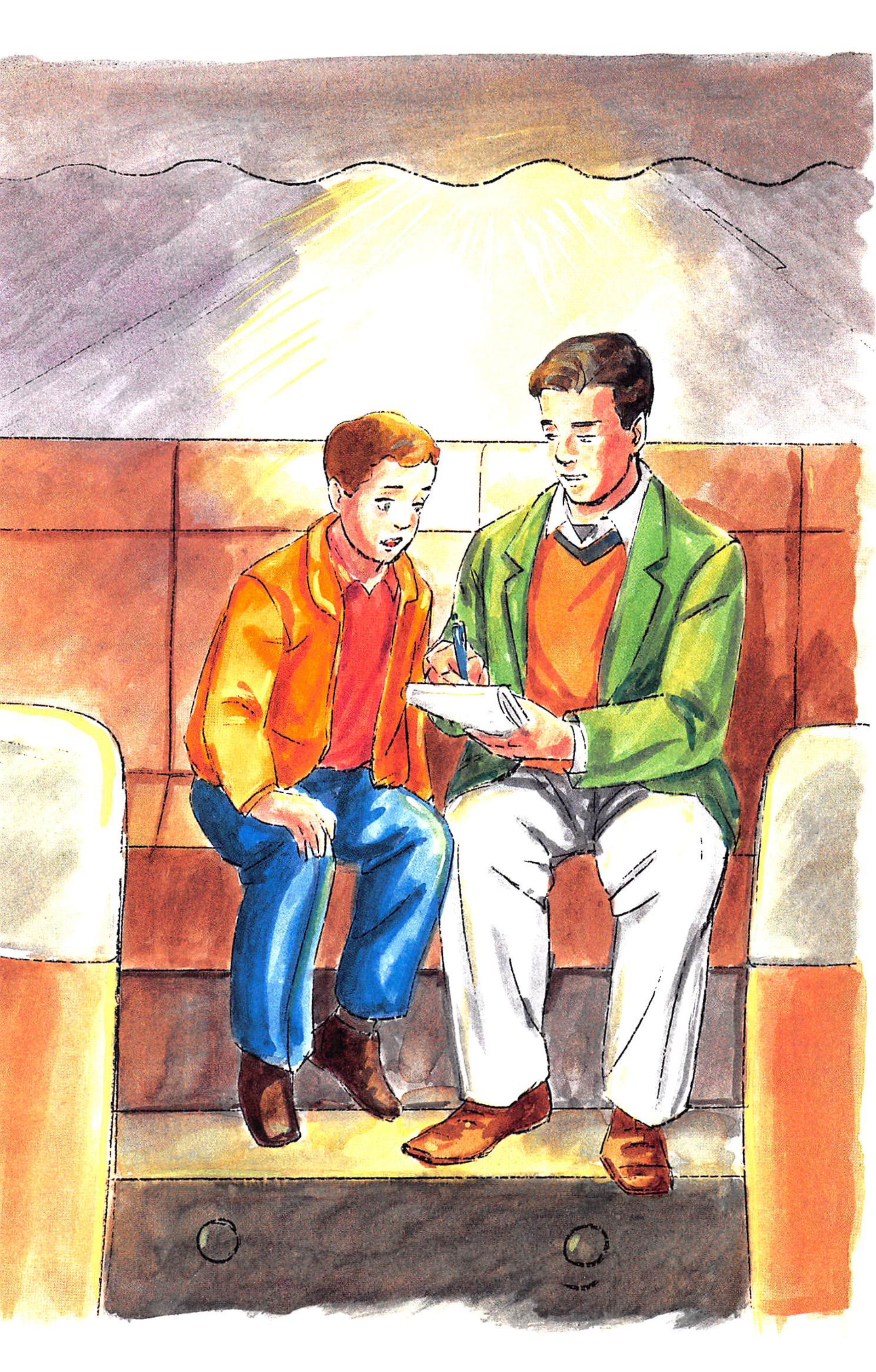
- اترك لي ذلك، أخبرني أتريد أن تتعلم؟

- طبعًا أريد.

فتح عادل حقيبته وأخرج كراسة، كان إسماعيل يشاهده بشغف، فأخرج عادل بهدوء قلمًا من جيب حقيبته ثم قال:

- وها هي ذي الأدوات اللازمة، والآن هيّا نبدأ.

- لنبدأ يا أستاذ عادل.



في البداية كتب عادل حروف الهجاء العربية في الدفتر ثم عرضه أمام إسماعيل وقال:

- ها هي الحروف، أولاً يجب عليك أن تتعلم هذه الحروف وتحفظها جيدًّا؛ لأن القرآن مكتوب بها، سوف أقرؤها لك عدة مرات لأُريك، انتبه جيدًا، سأعطيك عشر دقائق لتحفظ هذه الحروف بشكل جيد، ثم بعد ذلك نتدرب عليها.

أخذ إسماعيل الكراسة، بدأ عادل يقرأ الحروف واحداً تلو الآخر وإسماعيل يكرر خلفه كل حرف يقرؤه، فتعلم الحروف خلال عشر دقائق، وعندها قال عادل بسرور:

- أحسنت، أنت طفل ذكي كما توقعت، والآن وصلنا للمرحلة الثانية.

كان إسماعيل فرحًا مسرورًا فقال وهو يعرض الكراسة أمام عادل:

- هيا يا أستاذ عادل، لنسرع، فاليوم يوم خاصّ جدًا عندي، لا ينبغي أن نضّيع ولو دقيقة واحدة، علمني تلاوة القرآن، علمني كي أكون جديرًا لأعلم أبي وأمي.

بدأ عادل يعلمه الكلمات، كان إسماعيل يمتلك ذكاءً خارقًا ويفهم ما يُشرح له على الفور، حتى إن عادلًا وقع في الحيرة من

هذا ودهش من ملكته للفهم وقدرته السريعة على الاستيعاب؛ حقًّا لقد كان إسماعيل يتعلم سريعًا، وبينما كان ينهي المرحلة الثالثة ليبدأ في الرابعة وصلت الحافلة إلى استراحة قرب مدينة أفيون[٧]، فقال عادل:

- هيًّا، عد إلى والدك الآن، لئلا يراك معي، إذا رآك فسيغضب ثانية، كما أنني سأؤدي الصلاة، وعندما تتحرك الحافلة سنعاود درسنا من جديد.

قال إسماعيل بارتباك:

- حسناً يا أستاذ عادل.

اتجه عادل مباشرة إلى المسجد، وجدد وضوءه من صنبور بجانب الباب، ثم دخل المسجد ليؤدِّي صلاة العشاء، وهنا جذبت انتباهه خزانة في ركن المسجد، تراجع عن التكبير وفتح بابها، فوجد شيئًا كان يبحث عنه.

- الحمد لله.

مدَّ يده بفرح وأخذ من بين الكتب كتيبَ حروف الهجاء، ثم عاد ثانية للصلاة، ووضع الكتاب بجانب المحراب ثم أقام الصلاة، وفي وقت الدعاء رفع يديه ودعا قائلاً:

---

(٧) مدينة زراعية تقع فى وسط تركيا

- يا ربي، كن معينًا لإسماعيل على تعلُّم دينه، واملأ قلبه بحبك ونوِّرْ عقله، وزد رغبته في تعلم كتابك.

خرج عادل من المسجد، ووجد المسؤول عن المكان وأخبره أنه يريد شراء الكتاب، نظر الرجل إلى عادل برهة ثم أخبره أن باستطاعته أخذ الكتاب، شكره عادل وركض إلى الحافلة وهو مسرور ثم جلس في مقعده وانتظر إسماعيل.

تحركت الحافلة، وجاء إسماعيل بجانب عادل، أشعلا الأضواء التي في سقف الحافلة، وتابعا درسهما من الكتاب، واستغرقا فيه كثيرًا، وبينما هما كذلك إذ سمعا صوتًا أجش موجهًا نحوهما:

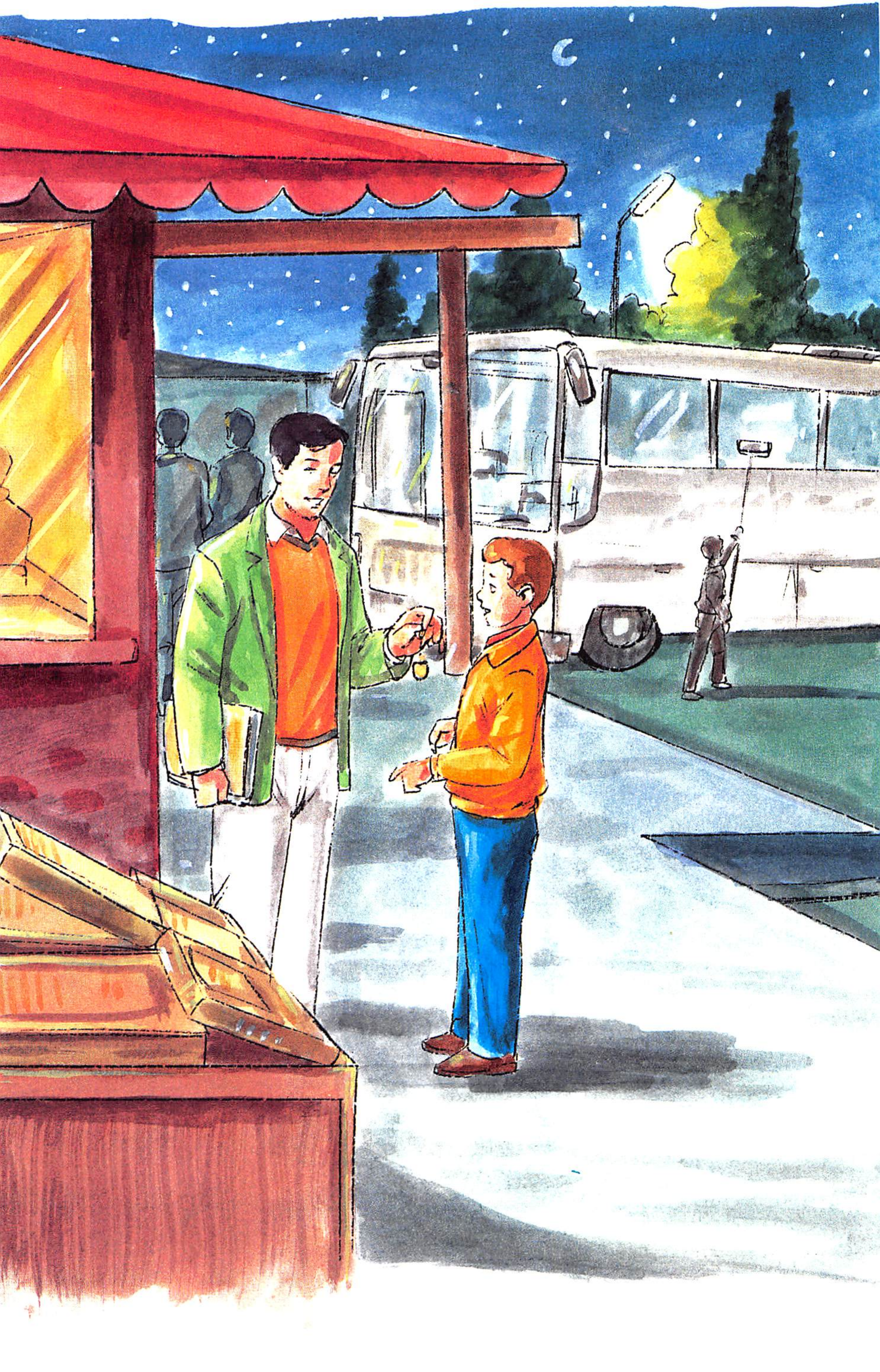
- إسماعيل ماذا تفعل هنا؟

- ...!

تلعثم إسماعيل ودهش لما رأى والده أمامه، كان المكان مظلمًا بعض الشيء حتى إنهم كانوا لا يستطيعون تمييز أعين بعضهم، ولكن كان يبدو من نبرة صوت والده أنه دَهِش، أجاب عادل نيابة عن إسماعيل بصوت يملؤه الحبّ:

- كان يتعلم حروف القرآن يا سيدي، فقد أخبرته أنه يستطيع تعلُّمها في ليلة واحدة.

ساد صمتٌ طويل ثم كان إسماعيل هو أول من تحدث فقال:



- أبي، إني سعيد جدًّا الآن، فأنا أتعلم القرآن.

وكأنه بكلمته هذه يقول: «أرجوك، لا تفسد الأمر»، فكر الرجل قليلاً ثم التف وعاد لمقعده، فنظر إسماعيل إلى عادل وقال مبتسمًا:

- هيا يا أستاذ نتابع.

عندما وصلوا إلى قونيا كان إسماعيل قد تعلم كيف يهجِّي الحروف، حتى إنه أصبح يقرأ بعض الكلمات رويدًا رويدًا، وفي الاستراحة نزل الاثنان معًا، أما والد إسماعيل فقد جلس على مقعد وأخذ يشاهدهما، وبدا على وجهه أنه يفكر في شيء، ذهب عادل وشرب من الصنبور ثم عاد إلى إسماعيل وقال:

- نستريح قليلًا، تعال نشاهد الهدايا المعروضة.

أخذا يتجولان في محل يبيع أشياء للزينة، ثمّ لفت انتباه عادل قسم به ميداليات مفاتيح.

- انظر إلى هذه يا إسماعيل، ما أجملها من ميدالية!

مد عادل يده وأخذها، ثم عرضها على إسماعيل، دقق إسماعيل في الكتابة العربية على ظهر الميدالية، ثم نظر إلى عادل وقال:

- الحرف الأول باء، ولكني لم أستطع أن أقرأ ما بعده، ثم

سأله قائلاً:

- ما المكتوب هنا يا أستاذ عادل؟

فقال عادل مبتسمًا:

- مكتوب «بسم الله الرحمن الرحيم» أي «بسم الله الحافظ الغفور»، ما أجمله من قول، أليس كذلك؟ هذه الجملة مكتوبة على الميدالية ولها مغزى كبير.

لم يفهم إسماعيل شيئًا فتساءل:

- لماذا؟

ترك عادل الميدالية مكانها ونظر إلى إسماعيل ثم قال:

- بسم الله بداية كل شيء جميل، حين نفتح الباب، وحين ندخل المنزل أو نخرج منه، بإيجاز علينا أن نسمي الله عندما نبدأ أي عمل، ذاك أنه لا خير في عمل لا يبدأ باسم الله.

جلس السائق على مقعده وانتظر الركاب، ركب الجميع الحافلة، وبينما يسير عادل مباشرة نحو مقعده التفت ناحية إسماعيل، فوجده جالسًا بجانب والده، وكان المعاون يتأكد من تمام عدد الركاب، مال إسماعيل إلى السائق وهمس بشيء في أذنه، ولما أومأ السائق برأسه موافقًا ركض إسماعيل ونزل من

الحافلة بسرعة، ثم عاد وفي يده ميداليتان، فقال حينما لاحظ أنَّ والده يراقبه بتعجب:

- مكتوب عليها البسملة، يعني بسم الله، لم أتعلم حروفها بشكل جيد بعد، ولكني سوف أستطيع قراءتها قريبًا، سترى.

لم يقل والده شيئًا، وإنما استغرق في النظر إلى الميداليتين، وقفت الحافلة عند مخرج قونيا، فأسرع إسماعيل يجري نحو عادل ، وكان والده ينزل من الحافلة، والمعاون يستعد ليفتح باب خزانة الحقائب.

وعندما أتى إسماعيل إلى عادل مد يده وأعطاه إحدى الميداليتين اللتين في يده وقال:

- يا أستاذ عادل، اشتريت اثنتين، واحدة لي والأخرى لك لتحتفظ بها ذكرى.

أخذ عادل الميدالية، ونظر بحب إلى البسملة المكتوبة بالحروف الصفراء على خلفية سوداء، ثم مدّ القرآن الذي في يده إلى إسماعيل وقال:

- هذا أيضًا لك، لقد كتبت على غلافه الداخلي بعض الجمل ذكرى الصداقة القصيرة هذه، اقرأها فيما بعد، كما ستجد عنواني أيضًا ورقم هاتفي، فربما تتصل بي.



أخذ إسماعيل المصحف ويداه ترتجفان، ثم قال وهو ينظر إلى عادل نظرات يملؤها الحب:

- وكيف لا أتصل بك يا أستاذ، وكيف لا أتصل؟

ثم أمسك يد عادل وقال بحرارة:

- سوف أطبق كل شيء علمتني إياه في حياتي، لن أرد الشحاذ الذي يمد يده إليّ خائبًا، حتى وإن نقدني بائع الذرة أو غيره.

وحينما سمع صوت والده علم أنه قد حان وقت الرحيل، سلّم على عادل، وبينما كان يسرع بالعودة توقف فجأة، ثم قال بصوت مسموع للمسافرين المجاورين له:

- لقد أعطيت والدي درسًا سيغير نظرته للحياة، سيكون شخصًا آخر بدءًا من اليوم، وإن لم يُظهر ذلك الآن، ولهذا أنا مدين لك مرة أخرى يا أستاذ عادل.

كان المسافرون يعلمون مغزى هذا الحوار، فالتفتوا بهدوء نحو عادل وقد تملكهم جميعًا الدهش وامتلأت عيونهم بنظرات التقدير.

نزل إسماعيل من الحافلة ووقف بجانب والده، ولما تحركت الحافلة لوح بيده لعادل وعيناه مغرورقتان بالدموع، فلوح له عادل هو الآخر وكأنه يفترق عن صديق حميم، وإذا بيد أخرى تلوح

باستحياء وخجل وكأنها تعتذر، فابتسم عادل عندما رأى هذه اليد تلوح، كما ابتسم أيضًا من ينظرون إلى الخلف من زجاج الحافلة، ولما التفت إسماعيل لاحظ يد والده وهى تلوح ببطء ورأى والده وهو يبتسم.

اختفت الحافلة في الظلام ونظر الأب وولده إلى ضوء القمر؛ وضع إسماعيل المصحف الشريف الذي في يده بجيبه الجانبي، وعلق الميدالية في يده، فهمس الوالد الذي كان يشاهد تصرفات ولده بوجه مبتسم:

- من الواضح أن أعمامك سيتأخرون، فقد وصلنا مبكِّرًا قبل الموعد بكثير.

نظر إسماعيل إلى الجبال التي تبدو أكثر ظلمة وسط الأشجار وقال:

- حسنًا، والآن ماذا سنفعل يا أبي؟ هل نسير؟ فربما نلتقي بأعمامي في الطريق.

ثم رفعا الحقيبتين من الأرض وشرعا في السير، كان يدوي من بعيد صوت عواء كلاب، فقال الوالد:

- هل تعلم يا إسماعيل، لم أعد أخشى أي شيءٍ تراه عيناي،

فقد تعلمت في تلك الحافلة أن البشر يكونون أحيانًا أخطر من الكلاب المتوحشة.

لم يجب إسماعيل ونقل الميدالية من يده إلى جيبه، وأوشك الاثنان أن يتركا الطريق الرئيس إلى الفرعي، كان إسماعيل هو أول من خطا بين أشجار الصنوبر الكثيفة وهو يتلو أجمل الأقوال «بسم الله الرحمن الرحيم».

سمع والده هذه الجملة فأخذ يكررها بينه وبين نفسه وهو ينظر إلى ولده ويقول: «بسم الله الرحمن الرحيم»، امتلأ قلبهما بالسكينة وبدآ يتسلقان الجبل في صمت، واختفى عواء الكلاب، وكان الصوت الوحيد المسموع هو صوت الرياح وهي تتخلل أوراق أشجار الصنوبر.

الضيف المفاجيء

- جاء دوري، انزل.

فنزل أخي عن المرتبة المحشوّة بالصوف الملقاة على الأرض، وكنت أنا فوق المائدة، دققت النظر في طرف المرتبة البعيد وقلت مبتسمًا:

- انظر يا محسن، سوف أتفوق عليك هذه المرة.

قفزت بكل ما أوتيت من قوة، وما إن لمست قدماي المرتبة السميكة حتى دوت صرخة محسن في الغرفة:

- يا إلهي أمي قادمة يا أخي، هيَّا بسرعة نرتب الغرفة.

نظرتُ إلى عينَيْ محسن اللتين يملؤهما الخوف، وحاولت أن أعرف إن كان يمزح أم لا، وحينئذ سمعت صرير باب الحديقة يُفتح، فهُرِعت نحو المرتبة السميكة التي تتوسط الغرفة، كما أنني أخذت أنادي أخي قائلًا:

- لماذا تقف متجمدًا هكذا؟ إذا علمت أمي بأننا لعبنا القفزة

الطويلة على هذه المرتبة ستنال منا! لنرفعها في الحال ونضعها في مكانها، هيا ساعدني بسرعة، لا أستطيع أن أرفعها بمفردي.

أمسك أخي من فوره بطرف المرتبة وطويناها معًا، غير أننا تأخرنا فسمعنا صوت والدتي قبل أن تصل وهي تقول:

- سترون ماذا أفعل بكم!

أدركت أمي ما حدث، وعلمت أننا أنزلنا ثانية مرتبة جهازها التي حافظت عليها حتى ذلك اليوم كما تحافظ على عينيها، وأننا تقلّبنا فوقها بل لعبنا بها كثيرًا.

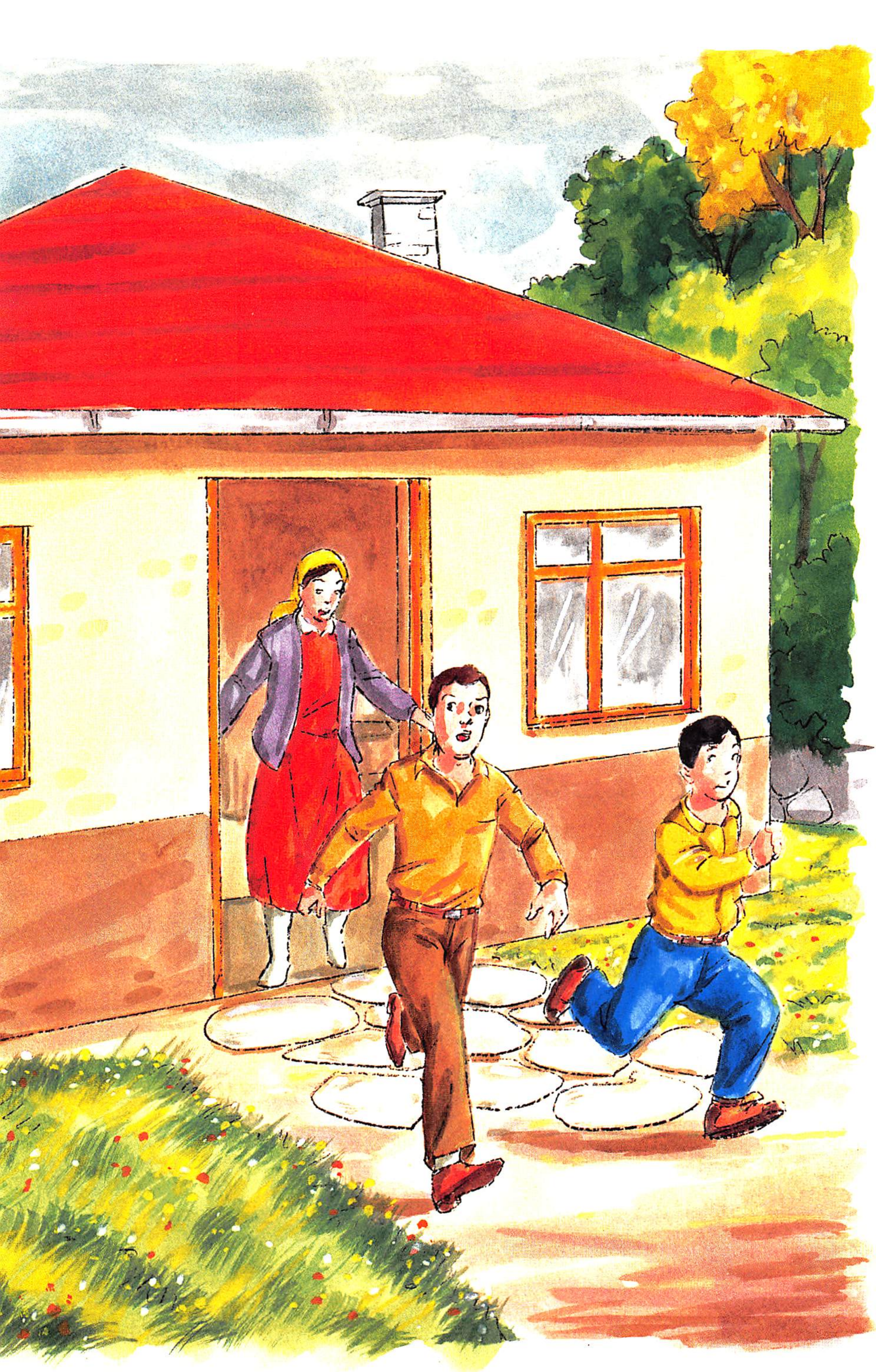
لاحظنا أنها دخلت الغرفة بغضب وسخط وحينئذ قامت الساعة.

- يا إلهي! مرتبتي الجميلة، مكانكما أيها الأشقياء، لا تهربوا!

وهل كنا سنقف؟! انطلقنا كالسهم، وفررنا إلى الحديقة، أحدنا عن يمين والدتي والآخر عن شمالها، كانت أمي تتعقبنا وهي غاضبة جدًّا بشكل لا يصدق!

- تعاليا هنا! ماذا فعلتما بمرتبتي التي حافظت عليها كنور عيني؟ آه لو أمسكت بكما.

ولكن هيهات أن تمسك بنا، خرجنا على الفور من باب الحديقة، ووصلنا إلى ميدان القرية دون أن ننظر خلفنا، غير أننا



نظرنا وراءنا ذات مرة، وقلنا في نفس اللحظة:

- حسنًا لقد نجونا بأنفسنا.

ولكن سنعود في المساء، يقولون: «دربُ الحمار على الطاحونة»، ألسنا مضطرين للعودة إلى المنزل، ماذا سنفعل حينها؟ فقلت مظهرًا عدم الاكتراث:

- يا عزيزي، ستنسى أمِّي ما حدث عندما يحل المساء!

مطّ محسن شفتيه وقال:

- اسكت يا عمِّ، نحن نعلم جيدًا كم هذه المرتبة عزيزة على والدتنا، فهي منذ سنوات لا تسمح حتى للذبابة بلمسها، أعتقد أن عاقبتنا هذه المرة ستكون أسوأ من السنة الماضية.

كلما تذكرت ما حدث العام الماضي بسبب هذه المرتبة أشعر بالقلق، كنا نلعب القفزة الطويلة ونثير الضجة فوق هذه المرتبة، وعندما قبضت علينا والدتنا وبختنا كثيرًا، وقالت مشيرة إلى طريق البئر:

- سوف تجلبان ٦٠ دلوًا من الماء!

فحنيت قامتي وقلت:

- أليست مجرد مرتبة عادية، أبسببها نستحق هذا العقاب القاسي؟

وعندما سمعتْ والدتي كلامي استشاطت غضبًا حتى إنها انتزعت عصا العجين وقالت:

- نعم تستحقان، كم مرة قلتُ لكما: إياكما أن تلمسا هذه المرتبة! فهي جهاز عرسي، إذا اقتربتما منها ثانية سيكون عقابكما أقوى، سوف تجلبان ١٠٠ دلو من ماء البئر.

وصلنا إلى البئر ونحن نتمتم، لففْنا البكرة ثم أدلينا الدلو في الماء، وكنا نصبّ الماء الذي نجلبه دلواً تلو الآخر في جذر شجر الحديقة، ووالدتي تنظر من النافذة حينًا بعد آخر، وتقول:

- كم وَصَلَ العدد؟

فنجيب ونحن منهكو القوى:

- اثنا عشر.

- تسعة عشر.

- اثنان وأربعون.

وسمعنا صوتها مرة ثانية:

- كم وصل العدد؟

- ...

فررنا وتوارينا بعيدًا خلف سور الحديقة، فقالت في نفسها:

- يا لَهذين الشقيين! هربا قبل أن ينفذا عقابهما، سألقاكما في المساء!

ولما عدنا للمنزل كان عندنا ضيوف، فلم تناقش أمي أمر المرتبة في حضور الجيران، وهذا يعني أننا نجونا من العقاب، رغم أنه بقيَ من عقابنا خمسة دلاء.

أيقظني صوت أخي محسن من خيالي الذي استغرقت فيه وهو يسأل:

- أخي ماذا سنفعل الآن؟

فكرت لحظة ثم اتجهت مباشرة نحو مقعدٍ أسفل شجرة الدلب التي أمامنا بقليل، وحينها قلت لأخي الذي ينتظر مني جوابًا:

- افعل ما شئت، أما أنا فقد تعبت من الجرى، وسأستريح هنا قليلًا.

فذهب محسن من فوره نحو أصدقائه ليلعبوا معًا في حديقة المدرسة.

وجلست أنا على أحد المقاعد أسفل ظل شجرة الدلب، فوجدت بجانبي قرويًا يأكل جبنة بخبز صابح مستدير، ومن بعيد رأيتُ رجلًا رثًّا مهلهلَ الثياب، يقف منتصبًا وسط الميدان، وقد

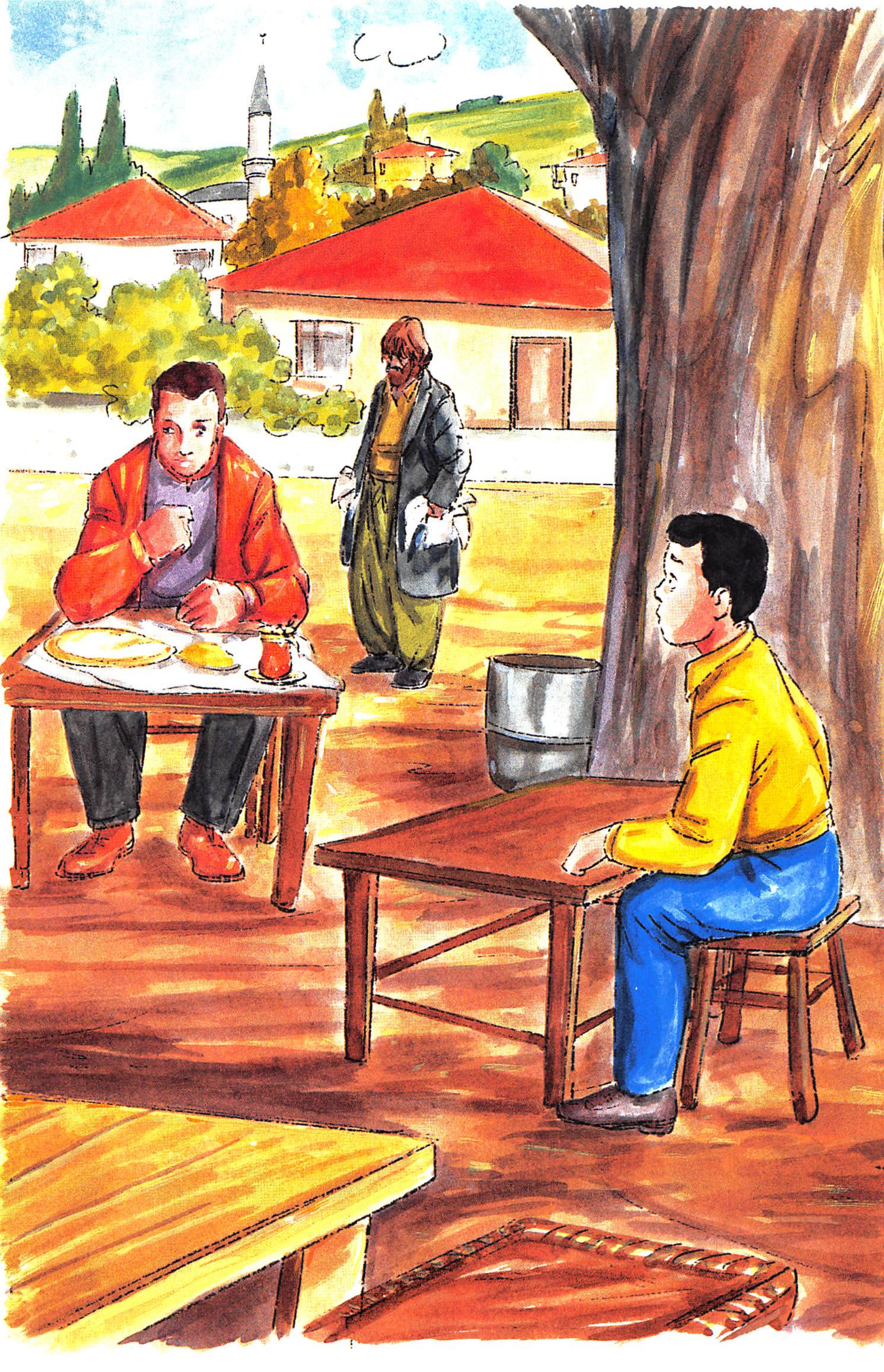
أخذ ينظر إلى الغادي والرائح.

انتهى القروي من أكل الجبنة، فطوى بيديه، ثم قذفها إلى صندوق القمامة، فنهض رجل كان ينتظره بصمت في أحد الأركان، ووضع يده في الصندوق وسط نظرات الجميع التي تملؤها الحيرة والدهش، أخرج الورقة التي أُلقيت قبل قليل في القمامة، ثم أتى بجانب القروي وجلس على أحد المقاعد، وأخذ يفتح الورقة التي طُويت وتجعدت، ثم بسطها على المنضدة وفرد تجاعيدها جيدًا براحة يده، كنت أشاهده أنا ومن حولي من القرويين، شرع الرجل يطوي الورقة، وأخذ يطوي ويطوي، حتى صارت الورقة في النهاية في حجم علبة الكبريت، ثم رفع رأسه ونظر حوله، وكنت أنا متشوقًا لمعرفة ما سيفعله، فمال عليّ الرجل الجالس بجانبي وهمس في أذني قائلًا:

- يدعونه الناس خليل المجنون، جيوبه دائمًا ممتلئة هكذا بسبب الورق الذي يجمعه من الشوارع ومن القمامة، ولا يعرف أحد ماذا يفعل به؟ أو لَم يجمعه؟ هو يعيش في خُصٍّ في مدينة مرسين[٨]، وخُصُّه الصغير هذا ممتلىء من الداخل بالورق.

---

(٨) مدينة سياحية تقع جنوب تركيا



صمت الرجل الجالس بجانبي عندما التفت إلينا خليل المجنون، فمن الواضح جدًّا أنه يتجنبه؛ ونظرت في عيني خليل وهو ينظر إليّ أيضًا، ومن الممكن تمييز عينيه الزرقاوين ولو قليلاً من بين خصلة شعره المتهدلة على جبينه، وشعره الأشقر مبلل، فالتفت خليل إلى الرجل الذي ألقى الورقة على الأرض قبل قليل، ورفع الورقة التي طواها ووضعها أمامه، ثم نهض وابتعد ببطء وصعوبة بسبب جيوب سرواله الممتلئة، أخذ الرجل الورقة التي وُضعت أمامه وقال ضاحكًا:

- ها! مجنون.

وبينما كان يتهيأ لإلقائها مرة أخرى في الصندوق ناديته قائلًا:

- يا عمي.

نظر الرجل إليّ ويده معلقة في الهواء.

- هلا أعطيتني هذه الورقة؟

تلعثم الرجل دهِشًا، وألقى بالورقة إلى طاولتي وهو يمطّ شفتيه، فأخذت أدقق في الورقة التي أمسكتها بيدي وأنا أفكر في خليل المجنون...

ثم نهضت أنا الآخر وذهبت إلى المنزل، حينها كنت قد نسيت

موضوع المرتبة، غير أنني تذكرته بالطبع من صوت والدتي وهي تقول:

- ها لقد أتيت! أين محسن؟ هيا بسرعة انزلا إلى الحديقة! واملآ مئة دلو.

فقاطعتها قائلًا:

- حسنًا يا أمي، غدًا سوف نملؤها، وعْدًا علينا!

لم تضف أمي شيئًا، ودخلت إلى المطبخ لكي تُعدَّ الطعام، أما أنا فصعدت إلى سطح المنزل، وبينما أنا هناك كنت أفكر في خليل، تُرى لماذا غدا هذا المسن المتلفع بالثياب الرثة المهلهلة هكذا؟ لماذا يجمع الورق من الشوارع؟ ولمَ يجمعه في خصِّه؟ وبينما كانت والدتي تُعد الطعام سمعتُ صوت والدي فهُرعت إلى الباب لأفتحه، وبينما كنت سأحييه، أحسست كأن لساني قد انعقد، فذلك الرجل يقف خلف والدي بكل هيبة؛ إنه خليل المجنون! يقف وقد فرَقَ خصلة شعره على الجانبين، وبدت عيناه الزرقاوان في منتصف رأسه، يستطرق النظر إليّ، وقلبي يخفق، فقلتُ في نفسي: ماذا يفعل هذا الرجل في منزلنا الساعة؟

سألني والدي قائلًا:



- أين والدتك؟

فأجبته دون أن أحول بصري عن خليل:

- في المطبخ، تُعد الطعام.

- جيد، أخبرها أن لدينا ضيفًا هذا المساء.

دهشت، ونظرت إلى والدي نظرات حادة، كان والدي شغوفًا بضيافة الزوار، ولكن ليس لهذه الدرجة، كيف يُحضر إلى المنزل من كاد وجهه ويداه يسوَدَّان من كثرة القذارة، وشعره ولحيته مُزيتة، في حين أن والدتي أكثر نساء المنطقة حساسية فيما يتعلق بالنظافة والطعام.

حقًّا، والدتي مولعة بالنظافة وترتيب المنزل، حتى إننا إذا جلسنا على الأريكة قليلاً ثم قمنا تُسْرع في الحال وترتب غطاء المكان الذي جلسنا فيه، وقد تلقينا منها تحذيرات كثيرة لأننا نترك المنزل غير مرتب، حتى إننا ذات يوم تشاورنا أنا ومحسن ووضعنا خطة، ثم نفذناها في الحال.

كنا ننتظر ذهاب أمي إلى جارتها بعد أن رتبت المنزل جيدًا، ولما خرجت من المنزل خرجنا عقبها على الفور، ولعبنا في الحديقة، وأخيرًا عدنا إلى المنزل عندما اقترب وقت عودتها، ورغم أننا لم نلمس أي شيء، إلا أنها حينما دخلت المنزل كانت

أول كلمة قالتها «يا لهذين الشقيين، لقد بعثرا المنزل!»؛ ومن فورها شمرت عن ساعديها وكنست المنزل من جديد ورتبته جيدًا، نظرتُ إلى والدي ثم إلى خليل، فقال والدي:

- بني، ابتعد عن الباب لكي ندخل.

أفقتُ من صدمتي، وركضت نحو المطبخ مباشرة، و عندما شرحت لوالدتي الأمر أطلقت صرخة:

- يا إلهي! أجّن والدك هذا؟ ماذا سأفعل أنا الآن؟

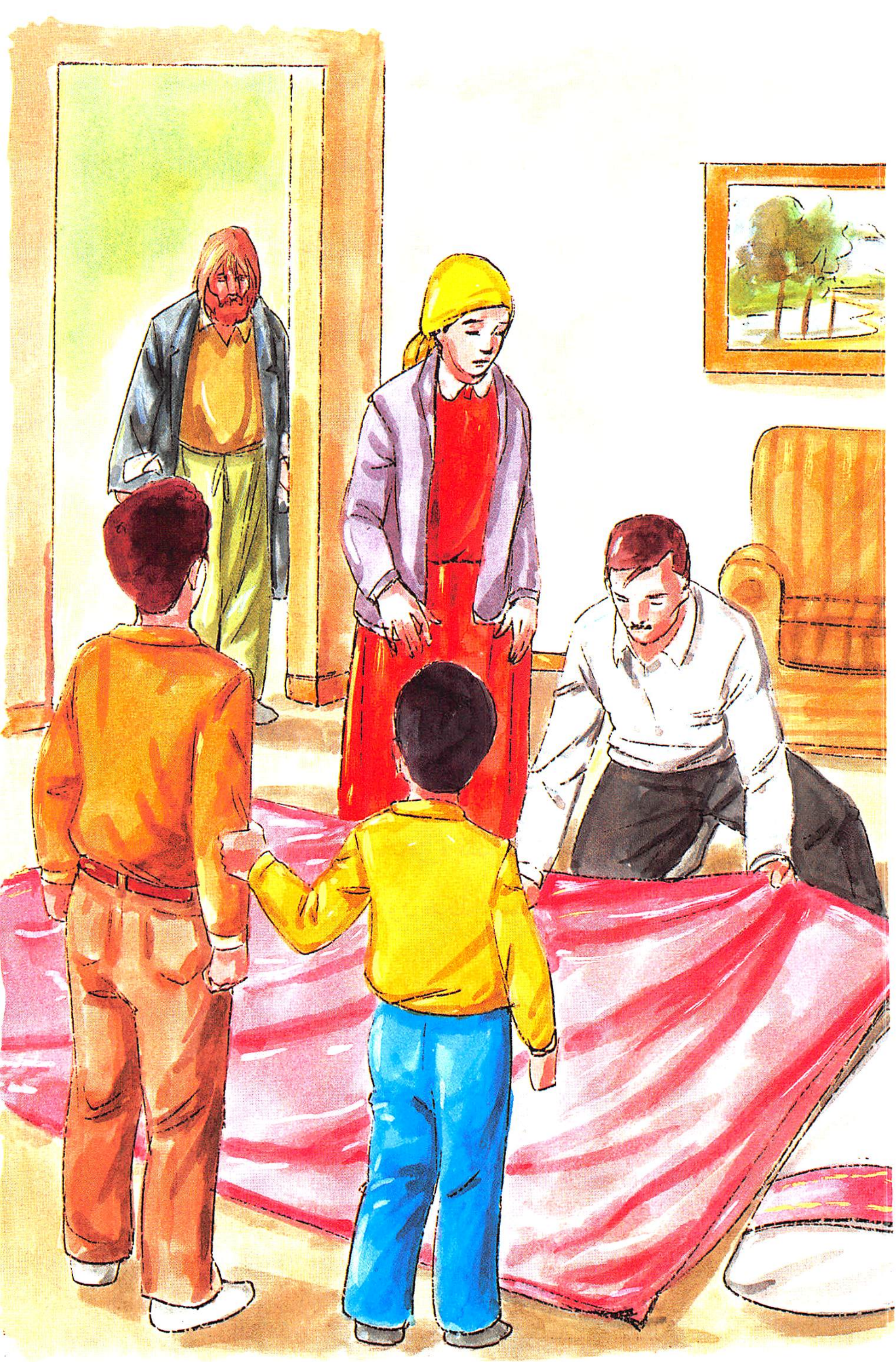
فأسرع والدي يحاول تهدئه والدتي ويقول:

- هوني عليك! الرجل غريب، ليس له هنا بيت أو أقارب، رأيته في ميدان القرية يقف وحيدًا ولم يضيِّفْه أحد، فهل عليه أن يقضي ليلته هناك؟ كيف تعتقدين أنه يمكنني تركه بهذه الحال؟ ماذا أقول لربي يوم القيامة؟

عندما أُعدّت مائدة الطعام جلس خليل في المقعد الأمامي، وأكل نفس الطعام الذي نأكله ومن نفس الوعاء.

ولما حان وقت النوم، فرشت أمي مرتبة الضيف وغطاءه ووسادته وملاءته، كان خليل يستعد للنوم فأعطاه والدي أحد سراويله.

كنت أنا ومحسن حتى ذلك الوقت لا نزال منْدهشَيْن.



همست أمي إلى أبي قائلة:

- سيدي، انتظر دقيقة، سنغير هذه المرتبة.

نظرت إلى أمي بحيرة، تُرى هل خشيت أن تتسخ المرتبة النظيفة؟ تحير والدي هو الآخر مثلي، فسألها في الحال:

- لمَ ستغيرين هذه المرتبة، هل لأنك تعتقدين أن خليلًا به قمل أو شيء من هذا القبيل؟ لا تقلقي غدًا انزعي غطاءها واغسليه.

لم تجبه أمي وذهبت إلى الغرفة الأخرى، ولما عادت تجمد نظر الجميع نحوها بأعين متسعة ما عدا خليلًا؛ كانت المرتبة التي مع والدتي هي مرتبة جهازها التي لم تقوَ على لمسها ولم تستخدمها أبدًا حتى ذلك اليوم.

ولما رأت نظراتنا المتحيرة قطبت حاجبيها وقالت:

- لماذا تقفون وتنظرون هكذا؟ هيا بسرعة ارفعوا المرتبة مِن على الأرض.

وثب أبي على الفور ورفع الفراش المبسوط على الأرض وجمعه ثم ركنه في أحد الأركان، وكانت أمي مشغولة بفرش المرتبة الشهيرة.

قضى خليل ليلته تلك على سرير نظيف جدًّا، وفي صباح

اليـوم التالـي سـلك طريقـه إلـى ميـدان القرية مـن جديـد، غير أن ملابسـه التي يرتديها لـم تعد متسـخة، فقد غسلتها أمي في المساء ونظفتها جيدًا، ووضعت الأوراق في جيوبه كما كانت.

عـاد خليـل من جديـد يجمـع الأوراق من الشـوارع ويملأ بها جيوبه، وقد تعلمت منه قيمة الورقة ومعناها.

أمـا أهميـة الضيـف وواجـب إكرامه فقد تعلمت هـذا من أبي، فوالـدي هـذا الـذي فتح منزله لذاك المسـنّ المسـكين الذي قذِرَه النـاس جميعًـا لأنـه مخبـول، كان يحـب الضيافة وإكـرام الضيف بحقّ.

أما التضحية فقد تعلمتها بالطبع من أمِّي، وأنا لن أنسى هذا اليوم أبدًا.

والآن تتساءلون: «ماذا عن عقاب ملء مائة دلو بالماء»؟ الحقيقة أننا لم نعاقب ذلك اليوم ولا بعده رغم أنه تم القبض علينا كثيرًا ونحن نقفز ونهبط من على المرتبة... لماذا؟ لعلكم لو قرأتم ما حدث مرّة أخرى تعثرون على الجواب بأنفسكم.

ملاحظاتي حول الكتاب

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

ملاحظاتي حول الكتاب

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

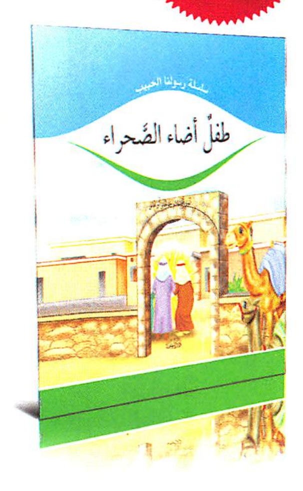
....

....

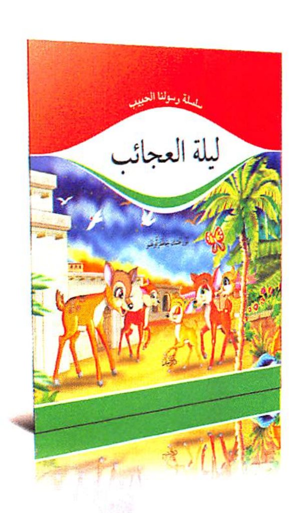
سلسلة رسولنا الحبيب 1-6

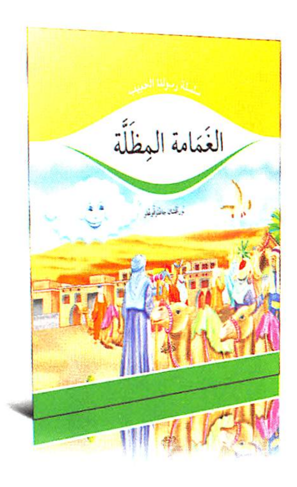
نور أَفْشان جاغْلَرْ أُوغْلو

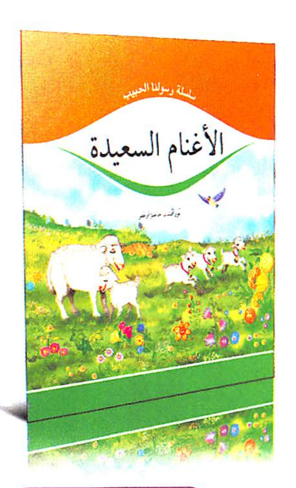
صدر حديثا...

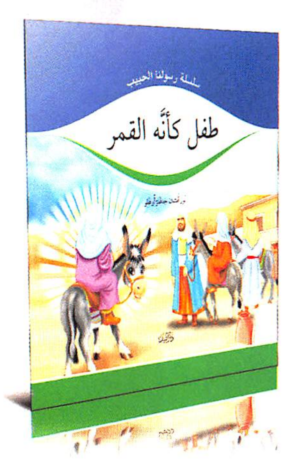












22x22	سم
16	صفحة

مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة / مصر

تليفون وفاكس : ٢٦١٣٤٤٠٢ الهاتف الجوال : ٠١٠٠٠٧٨٠٨٤١

www.daralnile.com

دار النيل